

روایات عالمیہ روایات عالمیہ

# الفلاحون

تألیف : أنطون تشيخوف

ترجمة : مرسى سيد مرسى



روایات عالمیہ روایات عالمیہ

سلسلة  
١١ إِبَاطٌ عَالِيَةٌ

تصدر عن :

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
المؤسسة المصرية العامة للنألف والنشر  
وزارة الثقافة

المشرف المسؤل : د. محمد إسماعيل المرواني

---

العنوان : الإدارة العامة للنشر  
٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة  
تليفون : ٩١٢٤٦٠

---

الغلاف : اسماعيل دياب



روايات عالمية

العدد ٤٨١ - ١١ مايو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

# الفلاحون

تأليف : أنطون تشيخوف

ترجمة : مرسى سيد مرسى

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

فرع الساحل



## مقدمة

« ان لغة وأسلوب تشيخوف قمة من المستحيل الوصول اليها ، واذا تكلم المرء عن تاريخ اللغة الروسية لا بد له أن يقول ان فضل خلق هذه اللغة يرجع الى بوشكين وتورجينييف وتشـيخوف » هكذا كتب مكسيم جوركى .

ولد أنطون بافلوفتش تشيخوف في ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ في مدينة تاجانروج لاسرة فقيرة ، اذ كان والده من اقنان الارض وبعد تحرره فتح حانوت بقالة صغيرا . وفي عام ١٨٦٨ التحق بمدرسة المدينة في سنة ١٨٧٣ - وبخلاف دراسته في المدرسة - التحق بمدرسة الصنائع لتعلم أى حرفة ولكنه لم يواصل دراسته بها ، وفي سنة ١٨٧٧ تركت أسرته المدينة وهاجرت الى موسكو لمصاحبة أشقائه الكبار الذين بدءوا دراستهم الجامعية ، وبقي هو في المدينة لمواصلة دراسته الثانوية ، وصار يعطى دروسا خصوصية ليتعيش منها كما كان يرسل بعض النقود الى الاسرة في موسكو . وأثناء دراسته كان يكتب بمجلة المدرسة كما كان يكتب المسرحيات لفرقة المدرسة المسرحية .

وفى سنة ١٨٧٩ أنهى دراسته الثانوية وسافر الى موسكو حيث التحق بكلية الطب فى جامعة موسكو وتخرج منها سنة ١٨٨٤ وبجوار عمله كطبيب أخذ يحضر رسالة للحصول على درجة الدكتوراه فى موضوع « الطب فى روسيا » .

بدأ تشيخوف حياته الادبية كصحفى وكاتب فى المجالات الفكاهية الصغيرة حيث كان يكتب كل شئ : فكاكات ونكت وتعليقات على رسوم « الكاريكاتير » ومقالات فى النقد الادبى والفنى ، والقصص القصيرة ٠٠٠ الخ . وقد وصف تشيخوف هذه الفترة من حياته بقوله : « كنت أكتب القصص كما يكتب المحققون الصحفيون عن الحرائق . وكنت أحاول فى كتاباتى ألا أستعمل تلك الشخصيات والموضوعات العزيزة على والتى يعلم الله وحده لماذا كنت أحفظها وأخبئها » ، ومع ذلك لم تكن قصصه هذه من النوع المألوف فى ذلك الوقت ، تلك القصص التى تتحدث عن جهل التجار وعن الزوجات الخائنات والازواج المخدوعين والحموات الشرسات ٠٠٠ الخ ، فلم يكن يحاول أن يجعل قصصه مضحكة فقط بل كان يحاول أن يضع فيها مضمونا معينا .

نشرت أول قصة له بعنوان « خطاب الى جارى العالم » سنة ١٨٨٠ ثم توالى قصصه القصيرة الصغيرة الحجم العظيمة المضمون تلك القصص التى وضعت على عرش



القصة القصيرة ونذكر منها «السمين والرفيع» ، «الحرباء» ،  
«الصول برشبييف» ، «فانكا» ، و «أريد أن أنام» .

ولم يترك تشيخوف كتابة المسرحيات وظهرت أولى  
مسرحياته الكبيرة « ايفانوف » سنة ١٨٨٩ ، ولقد اشترك  
تشيخوف مع ستانسلافسكى ونيميروفتش - داتشنيكو  
المخرجين الشهيرين فى خلق « مسرح موسكو الفنى » الذى  
لعب دورا هاما فى تطوير المسرح الروسى بل والمسرح  
العالمى ، ومن أشهر مسرحياته «النورس» ، «الحال فانيا» ،  
«الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» التى أنهى بها حياته  
الفنية وحياته كلها .

لقد بدأ تشيخوف حياته الفنية فى الثمانيات من  
القرن الماضى حيث كانت الرجعية فى اوج سطوتها فى  
روسيا، وحيث كانت السلبية والتشاؤم والضياع تسيطر  
على فئات واسعة من المثقفين ، ذلك بعد افلاس فلسفات  
الشعبيين ولم تكن أى فلسفات جديدة قوية قد ظهرت بعد .

أخذ تشيخوف يهاجم فى كتاباته الوضاعة والنذالة  
أينما وجدت ، وصار يكشف الفساد المستشري فى جميع  
نواحي وأركان المجتمع الروسى ويلقى الاضواء عليه ، لم يكن  
تشيخوف يجيب فى كتاباته على السؤال «ما العمل؟» بل  
ولم يكن يشير ولا بالرموز على اجابة لهذا السؤال وكان  
يقول انه قبل أن نذكر ما الواجب وما المفروض أن يكون  
يجب أن نعرف جيدا ما الكائن والموجود فعلا .

وكان تشيخوف فى أول حياته الفنية متأثرا بأفكار  
الاديب الفيلسوف الروسى ليف تولستوى ، كان مؤمنا بأن  
الانسان يستطيع أن يحل كل مشاكله بحبه لآخيه الانسان،  
وبالقناعة والرضا والتسامح ، ولكنه تدريجيا أصبح يرى  
أسباب الفساد فى النظم القائمة وفى سيطرة المال ذلك  
خصوصا بعد عودته من رحلته الى جزيرة ساخالين - شرق  
سيبيريا - منفى روسيا القيصرية ، تلك الرحلة التى قام  
بها سنة ١٨٩٠ ليتعرف جيدا على كل نواحي الحياة فى  
روسيا وكان لها أسوأ تأثير على صحة الكاتب المريض  
بالسل . كذلك ساعدته على تحديد وتعميق مفاهيمه تلك  
الفترة من حياته التى قضاها وسط الفلاحين فى أحد القرى  
القريبة من موسكو حيث ابتاع قطعة أرض شيد على جزء  
منها منزلا صغيرا واستقر به لعدة سنوات وأخذ يشترك  
فى أعمال البر لمساعدة الفلاحين الفقراء وفى بناء المدارس  
كما عمل فى مكافحة وباء الكوليرا الذى انتشر عامى ١٨٩٢،  
١٨٩٣ وهنا رأى الكاتب بنفسه عن كثب هول حياة الفلاح  
الروسى الذى كان يقاسى الفقر والجوع والجهل والمرض  
والفودكا . فصار تشيخوف فى كتاباته يتنبأ بالمستقبل  
المشرق السعيد وينتقد سلبية وتهلhel ووصولية المثقفين بل  
ويدعو - على لسان بعض أبطاله - الى النضال فى سبيل  
بلوغ هذا المستقبل . فمثلا فى قصته «قصة رجل مجهول»  
تقول بطلة القصة : «ان معنى ومضمون الحياة يتركز فقط  
فى النضال ، لا بد من سحق رأس الحية الوضيع ! هذا

هو معنى الحياة • هنا نجد المعنى أو لا معنى للحياة اطلاقاً  
ولكن وكما قال جوركي كان هدف كتابات تشيخوف أساساً  
هو توضيح الحقيقة التالية : من المستحيل أن يواصل المرء  
الحياة بالطريقة الحالية •

اشتد المرض على الكاتب فسافر الى خارج روسيا للعلاج  
مرتين ، ثم سافر الى مدينة يالتا على البحر الاسود حيث  
شيد هناك «فيلا» واستقر فيها للاستجمام والعلاج •

وفى سنة ١٩٠٠ اختير تشيخوف عضواً بالاكاديمية  
الروسية ، وفى سنة ١٩٠٢ رفض هذه العضوية احتجاجاً  
على عدم موافقة القيصر نيكولاى الثانى على قرار علماء وأدباء  
روسيا باختيار جوركى عضواً بالاكاديمية •

فى سنة ١٩٠١ تزوج تشيخوف من احدى ممثلات  
« مسرح موسكو الفنى » وفى يونيو سنة ١٩٠٤ ساءت  
حالته الصحية فسافر مع زوجته الى ألمانيا للعلاج حيث  
توفى هناك سريعاً ، وأعيد جثمانه الى روسيا ودفن فى  
٩ يوليو سنة ١٩٠٤ •

لقد عمق تشيخوف الاتجاه الواقعى فى الادب الروسى  
وكان أبطاله من الناس البسطاء العاديين ، بل لقد كان يرى  
فى كل انسان موضوعاً كاملاً لقصصه • ولم تكن قصص  
ومسرحيات تشيخوف غنية بالحوادث بل كانت مليئة  
بالتحليل والتحليل النفسى وكان يرى المأساة من خلال  
الفكاهة والفكاهة من خلال المأساة •

وكان أسلوب تشيخوف يتميز بالبساطة المتناهية والدقة القاسية فى اختيار الكلمات حتى لقد كان يتوقف أحيانا لأسابيع أمام كلمة أو جملة معينة حتى يستقر اختياره على ما يرضيه .

ويعرف القارئ العربى أنطون تشيخوف من خلال قصصه القصيرة ومسرحياته وهنا سيتعرف القارئ على قصتين طويلتين من أشهر ماكتب تشيخوف ، دارت حولهما المناقشات وطاردهما الرقابة ٠٠ الاولى « العنبر رقم ٦ » التى نشرت سنة ١٨٩٢ فى مجلة « الفكر الروسى » وفى سلسلة « للقراء المثقفين » والثانية « الفلاحون » التى نشرت فى المجلة الاولى سنة ١٨٩٧ .

ولعلها المرة الاولى التى تنقل فيها قصص لتشيخوف من الروسية الى العربية مباشرة وقد يكون هذا هو السبب الذى جعلنى أتمسك بالنص حتى أعطى للقارئ فكرة واضحة عن أسلوب الكاتب وأرجو أن أكون قد وفقت الى جانب ذلك فى نقل روح العمل الادبى لهذا الفنان العظيم .

## الفلاحون

### شخصيات الرواية

Nikolai Tchikildeev	نيكولاي تشيكلدييف
Olga	أولجا
Kiriak	كرياك
Maria	ماريا
Fekla	فيكلا
Sasha	ساشا
Ossip	أوسيب

مرض نيكولاى تشيكلدييف الخادم فى فندق  
« سلفيانسكى بازار » فى موسكو . أصبحت قدماء تنمل  
وتغيرت مشيته ، وذات مرة تعثر ووقع عندما كان يحمل  
صينية عليها طبق من اللحم بالبسلة ، فاضطر لترك  
العمل . ونفدت كل النقود التى كانت لديه ولدى زوجه  
على العلاج وأصبح لا يملك ما يقتات به ، ومل الحياة بلا  
عمل فقرّر العودة الى قريته ، فالمعيشة بل والمرض نفسه  
أسهل عندما يكون الانسان فى موطنه ، وصدق المثل  
الشعبى القائل : فى بيتك حتى الجدران تساعدك !

وصل قريته - جوكونو - مساء . كانت ذكريات  
الطفولة تصور له بيته مضيئا مريحا لطيفا ولكنه عندما  
دخل المنزل بهت ، لقد كان المكان ضيقا مظلما قدرا .  
وكانت زوجه أولجا وابنته ساشا قد حضرتا معه فأخذتا  
تنظران بتعجب وعدم فهم الى الفرن الكبيرة التى تشغل  
نصف المنزل تقريبا . لقد كانت تلك الفرن سوداء من  
السناج والذباب ، يالعدد الذباب المهول ! كانت الفرن  
مائلة ، مثلها كمثل القوائم الخشبية التى تقوم عليها الجدران  
مما يوجب بأن المنزل سينهار فى الحال .

وعلى الفرن جلست طفلة فى الثامنة ، بيضاء الرأس ،  
غير مغتسلة ، غير مهتمة بشئ لدرجة انها لم تلق نظرة على  
الداخلين ، وكانت هناك قطة على الارض تتمسح بركن  
الفرن ، فنادت عليها ساشا : بس بس بس ! فقالت الطفلة  
الجالسة على الفرن :

– انها لا تسمع ، لقد أصيبت بالصمم .

– لماذا ؟

– هكذا . ضربوها .

ومن الوهلة الاولى أدرك نيكولاى وأولجا كيف تكون  
الحياة هنا ، ولكنهما لم يتبادلا أى كلمة ، وألقيا بمتاعهما  
وخرجا الى الشارع صامتين . كان منزلهم الثالث من ناحية  
اليمين ، يوحى منظره بأنه أفقر البيوت وأقدمها ، ولم يكن  
البيت الثانى أحسن حالا أما المنزل الذى على الطرف فكان  
ذا سقف معدنى ونوافذه ذات ستائر ولم يكن حوله سور .  
كان به حانة . وكانت المنازل مصفوفة بنظام والأشجار  
تطل من الافنية المحيطة بالبيوت مما يعطى القرية منظرا  
هادئا شاعريا وعموما كان منظر القرية لطيفا .

وبعد بيوت الفلاحين يبدأ منحنى شديد الانحدار  
يوصل الى النهر ، تظهر فيه بعض الصخور العارية وفجوات  
من أثر حفر صناع الأوانى الفخارية ، كما نجد طريقا ضيقا  
متعرجا ، مليئا بأكوام من بقايا الأوانى الفخارية المهشمة .

وعلى شاطئ النهر تنبسط مروج واسعة ذات لون أخضر زاه قد جزت حشائشها وتتجول عليها قطعان ماشية الفلاحين . ويقع هذا النهر الكثير المنحنيات على بعد فرسخ واحد من القرية ، وعلى الشاطئ المقابل أيضا نجد المروج الواسعة عليها القطعان وطواير الازر الأبيض . ثم يرتفع التل ارتفاعا مفاجئا ، وعلى هذا التل تقع قرية أخرى ، صغيرة ، بها كنيسة ذات أبراج خمس ، وعلى مسافة غير بعيدة يوجد منزل السادة .

رسمت أولجا علامة الصليب على صدرها ناظرة الى الكنيسة وقالت :

— ان المنظر عندكم رائع . يالاتساع دنيا الله !

وفى هذه اللحظة دقت أجراس الكنيسة داعية لصلاة العشية ( كان اليوم سبتا ) والتفتت الى الكنيسة طفلتان كانتا تحملان دلو مليئا بالماء . وقال نيكولاى بصوت حالم:

— هذا هو وقت الغداء فى «سلافيانسكى بازار» . .

وجلس نيكولاى وأولجا على حافة المنحدر ليشاهدا الغروب ، وليشاهدا السماء الذهبية الحمراء المنعكسة على صفحة النهر وعلى نوافذ الكنيسة بل وفى كل الهواء اللطيف ، الهادى ، النظيف لدرجة غير معقولة ، هذا الهواء الذى لا يوجد مثله فى موسكو .

غربت الشمس ، وعادت القطعان تخور ، وعاد الازر



طائرا من الشاطئء الآخر • هدا كل شىء ، وانطفأ الضوء  
الخافت العالق بالهواء ، وزحفت ظلمة الليل سريعا •

وفى هذه الاثناء عاد العجوزان ، والد ووالدة نيكولاى  
النحيفان المحنيان الأهتمام بقامتيهما المتساويتين فى الطول •  
كما عادت النسوة •• زوجتا الأخين • ماريا وفيكلا •  
كان الجميع يعملون عند السيد على الشاطئء الآخر • وكان  
لماريا زوج الاخ كرياك ستة أطفال ولفيكلا زوج الاخ  
دينيس - المجند حاليا - طفلان • ولما دخل نيكولاى البيت  
ورأى العائلة مكتملة - كل هذه الاجساد الكبيرة والصغيرة  
التي تتحرك على الحصائر وفى الامهاد القذرة وفى كل  
الاركان ، ورأى العجوز والنسوة يأكلن الخبز الاسود بعد  
غمسه فى الماء أدرك انه أخطأ فى العودة الى القرية مريضا،  
دون نقود بل ومصطحبا أسرته •

وبعد أن سلم على الجميع سأل :

- أين أخى كرياك ؟

فقال الأب :

- انه يعمل خفيرا عند التاجر • فى الغابة • كان  
من الممكن أن يصبح فلاحا جيدا ولكنه يشرب كثيرا •

وقالت المرأة العجوز :

- عديم الفائدة ! يا للمرارة • ان رجالنا لا يمدون

البيت بالمال بل يأخذون منه • ان كرياك يشرب ، وكذلك  
العجوز • تلك هى الحقيقة • انهم يعرفون الطريق الى  
الحانة جيدا • لقد غضب علينا الرب •

وتحية للضيوف وضعوا السموار(١) • كانت رائحة  
السّمك المملح تفوح من الشاى ، والسكر رمادى اللون  
مقروض ، وتتجول الصراصير على الخبز والاوانى • فشربوا  
الشاى متقززين ، وكان الحديث أيضا مقززا يدور كله  
حول الحاجة والفقر والمرض ، وبعد أن شربوا الكوب  
الاول (٢) سمعوا صرخة ممدودة ثملة : ماريا !

فقال العجوز : لقد جاء كرياك • ما ان تذكره حتى  
يحضر •

هدأ الجميع وبعد لحظات تكررت نفس الصرخة ،  
فضة ، طويلة ، ممدودة كما لو كانت آتية من تحت الارض :  
ماريا !

فاصفر وجه ماريا والتصقت بالفرن ، وكان من  
الغريب أن يرى على وجه هذه المرأة - القوية ، عريضة  
الكتفين ، القبيحة - تعبير الخوف ، وبكت فجأة طفلتها

---

(١) السموار : جهاز لصنع الشاى ، عبارة عن اناء معدنى  
اسطوانى كبير ، ذو صنبور ، بأسفله فرن صغيرة تعمل بالفحم  
يفلى الماء بالاناء ، ويحفظ الجهاز حرارة الماء لمدة طويلة - المترجم  
(٢) يشرب الروس عادة اكثر من كوب من الشاى ، ويشربونه  
بالسكر أو بالربى أو بالعسل •

الصغيرة - تلك التى كانت جالسة على الفرن وكان منظرها يدل على عدم الاهتمام • فصرخت فى وجهها فيكلا - وهى امرأة جميلة ، قوية عريضة المنكبين أيضا - قائلة :

- ما الذى جرى لك أيتها الكوليرا ؟ لا أظنه سيقتلها !  
وعلم نيكولاى من العجوز ان ماريا تخاف أن تشارك كريك الحياة فى الغسابة ، وعندما يكون الاخير ثملا يأتى ليأخذها وعندئذ يرتفع صياحه عاليا ويضربها بلا شفقة •  
ولما جاءت الصرخة من وراء الباب تماما : ماريا !  
قالت ماريا متضرعة لاهثة الانفاس - كمن وقع فى ماء شديد البرودة » •

- احمونى بحق المسيح ! احمونى يا أحبائى ••

فبكى كل الاطفال وبكت ساشا لبكائهم ، ثم سمع الجميع سعالا ثملا ودخل رجل طويل القامة ، اسود اللحية ، على رأسه طاقية شتوية • ولم يسمح ضوء المصباح الضعيف برؤية وجهه مما جعل منظره مخيفا • هذا هو كريك • اقترب من زوجته وضربها بقبضته على وجهها بكل قوة • لم تخرج من فمها أى صرخة بل بهتت من هول الضربة • وركعت على ركبتيها والدم يسيل من أنفها •

فقال العجوز صاعدا على الفرن :

- ياللعار ! أفى وجود الضيوف ؟ حرام !

وجلست المرأة العجوز صامئة محنية الظهر تفكر فى  
شئ ما ، وأخذت فيكلا تهدهد أحد الصغار ..

ويبدو أن كرياك كان راضيا اذ يشعر بنفسه مخيفا  
فأمسك بيد ماريا وجرحها الى الباب وزأر كالوحش حتى  
يبدو مخيفا أكثر ، وهنا رأى الضيوف فتوقف وقال تاركا  
زوجه :

— آه • لقد جاءوا • • شقيقى وأسرته •

ورسم علامة الصليب أمام الايقونة ووقف فاتحا  
قدميه مهتزا محملا بعينه الثملتين الحمرأوين وقال :

— لقد عاد شقيقى وأسرته الى بيت العائلة • • • من  
موسكو اذن • أعظم مدينة ، اذن ، مدينة موسكو ، أم  
المدن • • • أرجو المعذرة •

وارتمى على الأريكة بجوار السموار وأخذ يشرب  
الشاي • كأن يرتشفه من طبق الفنجان بصوت مرتفع فى  
ظل صمت الآخرين • وشرب حوالى عشرة فناجين ثم مال على  
الاركة وشخر •

استعد الجميع للنوم فوضعوا نيكولاى — بصفته  
مريضسا — على الفرن بجوار العجوز ، ورقدت ساشا مع  
الاطفال على الارض ، أما أولجا فقد ذهبت مع النسوة الى  
كوخ الحظير •

وعندما رقدت أولجا على التبن بجوار ماريأ قالت :  
- ايه يا عصفورتى لن تتحسن حالتك حتى لو  
احترقت بالدموع لا يوجد الا الصبر . ولقد جاء فى  
الانجيل : « اذا ضربك أحد على خدك الايمن أدر له الايسر » .  
ايه يا عصفورتى ! ثم أخذت تقص على النسوة بتنعيم  
وبصوت خفيض عن موسكو ، وعن حياتها هناك ، وعن  
عملها كخادم فى الشقق المفروشة وأنهت حديثها قائلة :

- والكنائس فى موسكو كثيرة جدا ، والبيوت  
كبيرة ومبنية بالحجارة ، يسكن فيها سادة محترمون على  
جانب كبير من الجمال .

فقالت ماريأ انها لم تر موسكو أبدا ، ولا حتى  
مدينة المركز . لم تكن متعلمة ، ولا تعرف الصلاة بل  
لا تحفظ حتى « أبانا الذى » ولقد كانت هى وفيكلا - التى  
جلست عن كذب تنصت للحديث - فى منتهى الجهل ،  
لا تفهمان شيئا . وكانتا تكرهان زوجيهما ، ماريأ تخاف  
كرياك وترتجف رعبا اذا صارت معه فى خلوة ، وتشعر  
بمنتهى الضيق من قربه اذ كانت رائحة الفودكا والطباق  
تفوح منه دائما . أما فيكلا فقد أجابت على السؤال عما  
اذا كانت تشعر بالحنين لزوجها البعيد قائلة :

- فليذهب الى الشيطان .

تحدثن ثم سكن .

كان الجو باردا نوعا ، وصراخ الديكة يمنع النوم .

ولما بدأ ضوء الصباح الازرق يتخلل الثقوب الموجودة فى  
جدران الكوخ نهضت فيكلا بهسوء ، وخرجت ، وتردد  
وقع أقدامها الحافية وهى تجرى الى مكان غير معلوم .

## - ٢ -

توجهت أولجا الى الكنيسة وصحبت معها ماريا ،  
انحدرتا على الطريق الضيق المتجه الى المروج مرحتين :  
أولجا معجبة بالفضاء المتسع وماريا ترى فى أولجا انسانا  
عزيزا قريبا الى قلبها . كانت الشمس تشرق ، وبالقرب  
من الارض ، على المرج يطير صقر لم يستيقظ تماما بعد ،  
وبدا النهر غير واضح جيدا للعيان لأن الضباب لازال  
يتجول هنا وهناك ، ولكن شريط الضوء كان يغطى التلال  
على الشاطئ المقابل ، وتلمع أبراج الكنيسة تحت أشعة  
الشمس ، والغربان تنعق بقوة فى حديقة السادة .

وكانت ماريا تتحدث قائلة :

- العجوز غير سيىء . أما المرأة العجوز فقاسية ،  
تتعارك معنا . ويكفينا قمحنا عادة حتى عيد وداع  
الشتاء (١) ثم نبدأ فى شراء الدقيق من الحانوت ، فتصرخ  
عندئذ العجوز قائلة اننا نأكل كثيرا .

---

(١) عيد سلافياتى قديم يحتفل به فى نهاية الشتاء ، وتصنع  
فيه الفطائر .

– ايه يا عصفورتى • الصبر ولا شىء غير الصبر •  
يقول الرب : « تعالوا الى يا جميع المتعبين وثقيلى  
الاحمال » •

وكانت أولجا تتكلم ببطء وتنغيم ، وهى تمشى  
كالراهبات ، بسرعة واتزان • وكانت تقرأ فى الانجيل  
كل يوم بصوت مرتفع وبطريقة القساوسة ،  
ولم تكن تفهم الكثير مما تقرأه ولكن الكلمات  
المقدسة كانت تؤثر عليها تأثيرا بالغا حتى لتكاد الدموع تطفر  
من عينيها ، وكانت تنطق بالكلمات السلافية القديمة  
– التى لا زالت تستعمل فى الانجيل – بقلب واجف مملوء  
بالرضا ، وكانت تؤمن بالله والام المقدسة وبالقدسين ،  
وتؤمن بأنه لا يجب اغضاب انسان على وجه الأرض ،  
سواء كان هذا الانسان عاديا ، أو المانيا ، أو من الفجر ،  
أو من اليهود • بل تؤمن بأن الله سيعذب حتى من لا يعطف  
على الحيوانات ، وتؤمن بأن هذا كله مكتوب فى الكتاب  
المقدس • لذا كان وجهها ينير وتعبر قسماته عن الرضا  
والسكينة ذلك عندما تنطق بأى كلمات من الانجيل حتى  
لو كانت هذه الكلمات غير مفهومة لديها •

وسألته ماريا :

– من أين أنت ، أصلا ؟

– أنا من منطقة فلاديمرسك ، أخذونى من قرىتى  
منذ مدة طويلة ، عندما كنت فى الثامنة من عمري •

وعندما اقتربتنا من النهر لمحنا امرأة تخلع ملابسها  
فعرفتها ماريًا وقالت :

- هذه فيكلا • انها تزور الخولى ورجالها • وهى  
لعوب سليطة اللسان لدرجة مذهلة !

أخذتا تنظران الى جسدها الجميل الشاب القوى ،  
وحواجبها السوداء الواضحة كالمرسومة وشعرها المسدل  
على أكتافها • ورمت فيكلا بنفسها فى الماء وأخذت تضربه  
بأقدامها بقوة ، فتناثر الرذاذ وتموج الماء من حولها •  
وكررت ماريًا :

- يا لها من لعوب !

وعبر النهر كانت هناك قنطرة مبنية من قوائم  
الأخشاب المتعامدة ، يرى من تحتها الماء الصافى الذى  
تظهر فيه قوافل السمك • وكان الندى يلمع على أوراق  
النباتات القريبة من الماء • وصار الجو دافئًا لطيفًا • يا له  
من صباح رائع ! ويبدو أنه من الممكن أن تكون الحياة على  
هذه الارض رائعة لولا الحاجة ، الحاجة الفظيعة التى لاخرج  
منها ولا مفر • وتكفى التفاتة واحدة الى القرية لتذكر كل  
ما كان بالأمس - فضاع فى الحال الشعور بالسعادة  
المتصورة •

ولما وصلنا الى الكنيسة توقفت ماريًا عند الباب ولم  
تجرؤ على التقدم • بل ولم تجرؤ على الجلوس أرضًا مع ان



الاجراس لم تدق لبدء الصلاة الا فى التاسعة، وظلت واقفة طوال الوقت .

وعندما بدأت قراءة الانجيل سرت همهمة وتحرك الناس ليفسحوا الطريق لعائلة السادة . دخلت فتاتان فى قبعات كبيرة ، معهما ولد سمين زهرى الوجه مرتديا لباسا كلباس البحارة ، ولقد تأثرت أولجا لرؤيتهم وقررت من النظرة الاولى انهم اناس مهذبون محترمون مشفقون وعلى جانب كبير من الجمال . أما ماريا فقد رمتهم بنظرة كئيبة منقبضة غاضبة، نظرة من تحت الجفون . كما لو أن الداخلين ليسوا بآدميين بل غيلان ضارية تستطيع أن تطحنها بالاقدام اذا لم تفسح لها الطريق .

بدأ القس فى القراءة وعندما كان صوته الأجرس يرتفع كان يخيل اليها انها تسمع صرخة « ماريا » فترتجف .

### - ٣ -

علم أهل القرية بحضور الضيوف فامتلاً المنزل -بعد الصلاة- بالزوار ، فحضر آل التشوف وآل ماتفيتش وآل ليونشوف ليسألون عن اخبار ذويهم الموجودين فى موسكو . لقد كان كل من يعرف القراءة من أهل جو كوفو يهاجر الى موسكو للعمل فقط كخدم وسعاة فى فنادقها

ومقاهيها . ( ومثلا كان المهاجرون من القرية الواقعة على الشاطئ الآخر يهاجرون للعمل فقط كخبازين ) وهكذا جرت العادة من قديم - من عهد القنانة (١) - عندما كان أحد المهاجرين الأوائل من قرية جوكوفو - لوكا ايفانوفتش - يعمل عامل بوفيه فى أحد نوادى موسكو وكان يساعد مهاجرى جوكوفو فقط فى الالتحاق بالعمل ، وهؤلاء الجدد يستدعون بدورهم أقاربهم ومعارفهم فقط ويساعدونهم فى الالتحاق بالعمل فى المطاعم والفنادق والمقاهى . ولقد هاجر نيكولاى من القرية عندما كان فى الحادية عشرة ، وألحقه بالعمل رجل يدعى ايفان مكارتش من آل ماتفيتش الذى كان يعمل ساقيا فى قهوة « ارميتاج » . فتوجه نيكولاى بالحديث الى آل ماتفيتش قائلا :

- ان لايفان مكارتش فضلا كبيرا على وسأدعو له طول عمرى لأنه هو الذى ساعدنى فى أن أصبح انسانا جيدا .  
فقالته أخت ايفان مكارتش - وهى امرأة عجوز -  
دامعة :

- قل لى يا بنى ما أخبار حضرتته ؟

---

(١) القنانة - كان الفلاحون فى روسيا اقنانا للأرض أى مثبتين اليها ويعتبرون من املاك صاحب الأرض الذى يملك عملهم وحق بيعهم وشرائهم وحق عقابهم بالسجن او الجلد او النفى الى سيبيريا وحق ارسالهم الى الجيش كمجندين . ألغيت القنانة سنة ١٨٦١ فى عهد القيصر الكسندر الثانى - المترجم

– فى الشتاء الماضى كان يعمل فى قهوة « آمون »  
وفى الموسم الحالى يعمل فى أحد ملاهى الضواحي . . لقد  
كبر ! فى الماضى كان يحصل أحيانا فى اليوم الواحد على  
حوالى عشرة روبلات ، أما الآن فقد أصبحت الحالة هادئة  
فى كل مكان . . لقد تعب العجوز .

وكانت النسوة والعجائز تنظرن الى حذاء نيكولاى  
البالى والى وجهه الشاحب المريض قائلا :

– أنك عاجز عن الكسب يا نيكولاى اوسيبيتش !  
لن تستطيع أن تتكسب ! لن تستطيع !

وكان الجميع يدللون ساشا . كانت فى العاشرة  
ولكنها كانت قصيرة ونحيفة بحيث تظهر كما لو أنها فى  
السابعة لا أكثر . وكان منظرها غريبا وسط الاطفال  
السمر البشرة ذوى الشعر الغير مقصوص والقمصان  
الطويلة ، فلقد كانت بيضاء ذات عينين سوداوين  
واسعتين وشريط أحمر فى شعرها . فبدت أشبه بالثعلب  
الصغير الذى اصطادوه فى الحقل واحضروه للمنزل للفرجة .

وقالت أولجا ناظرة بعطف وحب الى ابنتها :

– انها تستطيع القراءة .

وأخرجت من جيبها انجيلا ناولته لابنتها قائلة :

– اقرئى يا بنتى ! اقرئى ليسمع المسيحيون الطيبون !

كان الانجيل قديما ، ثقيلا ، مجلدا ، أطرافه مقروضة ،  
وتصاعدت منه رائحة جعلت الناس يتصورون أن احدى  
الراهبات دخلت البيت • رفعت ساشا حاجبيها وبدأت  
القراءة بصوت مرتفع ونبرات منغمة :

— « فقال يوسف لاخته تقدموا الى • فتقدموا •  
فقال أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » •  
فكررت أولجا وراءها « • • الذى بعتموه الى مصر »  
واحمر وجهها فرحا • وواصلت الصغيرة :

— « والآن لا تنأسفوا أو لا تغتاظوا لأنكم بعتمونى  
الى هنا • لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله • • »

وعندئذ لم تتحمل أولجا فبكت تأثرا • ونظرت اليها  
ماريا وشبهت هي الاخرى • كما شبهت أخت ايفان  
مكارتش • وسعل العجوز جدها وأخذ يبحث عن شئ  
يعطيه لحفيدته مكافأة لها ولكنه لم يجد شيئا فأشار بيده  
فقط • ولما انتهت الطفلة من القراءة تفرق الجيران كل الى  
منزله • وكان الجميع متأثرين وراضين عن أولجا وساشا •

بقى الجميع فى المنزل للراحة فلقد كان اليوم أحد  
الأعياد الدينية ، وبمحض ارادتها أنهمكت العجوز — التى  
ينادىها زوجها وزوجات أبنائها وأحفادها بالجدة — فى  
القيام بالواجبات المنزلية وحدها ، فهى التى حمت للفرن  
وللسموار بل وتوجهت للعمل نصف يوم • ثم أخذت تشكو  
وتقول ان الجميع قد اضمنوها بالعمل • وقد كانت دائما

تلاحظ بقلق حتى لا يأكل أحد أكثر من نصيبه ، وحتى لا يجلس العجوز أو زوجات ابنيها دون عمل ، وكانت تتخيل أحيانا انها تسمع صياح أوز صاحب الحانة يتهجم على الزرع الموجود فى حديقة الدار فتأخذ عصا طويلة وتقف بجوار الكرنب -النحيل الذابل مثلها تماما- وتأخذ فى الصياح ، وأحيانا أخرى تتخيل أن الغراب يتهجم على الكتاكيت فتجرى صارخة للدفاع عنها . وكانت دائما غاضبة تصيح من الصباح الى المساء وتثير أحيانا ضجيجا صاخبا لدرجة أن المارة فى الشارع يتوقفون لاستطلاع الأمر .

وكانت طريققتها فى الحديث مع زوجها غير لطيفة ، وتبدأ الحديث معه دائما بإحدى كلمتى : الكسول أو الكوليرا . ولقد كان العجوز فلاحا سيئا لا رجاء منه لو لم تدفعه دائما للعمل لما عمل شيئا البتة بل جلس على الفرن وأخذ يثرثر . لقد قص على نيكولاى كثيرا عن أعداء ما وشكا له من أن جيرانه دائما يغضبوه ، وكان حديثه دائما مملا .

فكان - مثلا - يمسك بجنبه ويقول :

- أجل . أجل . بعد الحصاد بأسبوع بعث التبن بسعر القنطار ثلاثين كوبىكا ، بمحض ارادتي . . أجل . . حسنا . . ولكن ، اذن صباحا وأنا أنقل التبن ، بمحض ارادتي ، فى حالى اذا بالعمدة أنتيب سيديلنكوف خارجا

من الحانة ، فقال لى « الى أين أيها الـ ٠٠ ؟ » وضربنى على أذنى .

وجلس كريك فى منتهى الحجل أمام أخيه من أفعاله  
بالأمس وكان يعانى من صداد حاد من اثر الشرب وأخذ يهز  
رأسه قائلاً :

— يا للفودكا وما تفعله الفودكا يا الهى ! اعذرني  
يا أخى بحق المسيح ! أنا نفسى غير راض عن أفعالى .

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانوتى سمكة مملحة  
وطبخوا على رأسها شوربة ، وفى منتصف النهار جلس  
الجميع حول السموار لشرب الشاى ، وشربوا كثيراً حتى  
نضح العرق من أجسادهم بل حتى شعروا بالانتفاخ ، وبعد  
الشاى جلسوا ليأكلوا الشوربة بالخبز من حلة واحدة .  
أما السمكة نفسها فقد أخفتها الجدة .

ومساء كان صانع الفخار يحرق الطمى عند شاطيء  
النهر ، والبنات تغنى فى المروج ، والشباب يعزف على  
الأوكرديون ، وعلى الشاطيء الآخر كانت ترى فرن أخرى  
لصنع الفخار . والبنات أيضاً تغنى . وبدأ الغناء جميلاً  
منتظماً من بعد ، وانبعثت ضوضاء الفلاحين من الحانة  
المجاورة ، يغنون بصوت ثمل ، كل يغنى على حدة ، وكان  
سبابهم بذيثاً لدرجة أن أولجا كانت ترتجف عند سماعه  
وتتمتم « يا الهى ! » وكانت تتعجب من أن السباب  
لا ينقطع لحظة ، ومن أن أكثر من يسبون وأعلاهم صوتاً هم

هؤلاء العجائز الذين يقفون على حافة القبر • أما الأطفال  
فكانوا يستمعون الى هذا السباب دون خجل وفي منتهى  
الهدوء ويبدو أنهم قد تعودوا عليه من المهد •

كان الوقت بعد منتصف الليل وانطفأت الفرن على  
هذا الجانب من النهر، كما انطفأت على الجانب الآخر ، ولكن  
الناس لا يزالون يلهون على المروج وفي الحانة ، تقدم العجوز  
وكرياك مخمورين الى الكوخ حيث تنسام ماريا وأولجا ،  
أيديهما متشابكتين وأكتافهما تتصادم •

وأخذ العجوز يقنع ابنه قائلا :

— اتركها •• لاداعى •• انها امرأة طيبة •• هذا

حرام ••

ولكن كرياك صرخ :

— ماريا ! ، ووقفا حوالى دقيقة أمام الكوخ ثم ذهب •

وفجأة بدأ العجوز فى الغناء بصوت عال رفيع :

— أنا أحب زهر الحقول •• احب أن أجمعه فى

المروج !

ثم بصق وسب سبابا بذيثا ودخل البيت •

- ٤ -

أمرت الجدة ساشا بالوقوف بجوار الحديقة لحراستها  
من الأوز • وكان اليوم أحد أيام أغسطس الحارة • لم

يحاول أوز صاحب الحانة دخول الحديقة فلقد كان مشغولا بالتقاط بعض الحبوب متحدثا بسلام الا أحد الذكور الذي رفع رأسه كأنه يستطلع ، هل تقف الجد بعصاها الطويلة ، أما بقية أوز القرية فكان يرعى هناك عند النهر فى صف أبيض طويل . وقفت ساشا قليلا ثم ملت ، ولما رأت أن الأوز لا يقترب توجهت ناحية المنحدر .

ورأت هنا ابنة ماريّة الكبرى - موتكا التى كانت واقفة على صخرة ضخمة تنظر الى الكنيسة بلا حراك . لقد ولدت ماريّا ثلاث عشرة مرة ولم يبق لها الا ستة أطفال كلهم بنات ، بلا ولد واحد ، وكانت كبرى بناتها فى الثامنة . كانت موتكا حافية القدمين مرتدية قميصا طويلا تقف فى الحر تحت أشعة الشمس التى تكاد تحرقها ولكنها لم تكن تلاحظ ذلك بل كانت كالتمثال . فوقفت ساشا الى جانبها وقالت ناظرة الى الكنيسة :

- ان الله يعيش فى الكنيسة والناس يستعملون الشموع والمصابيح للاضاءة ، أما الله فيستعمل القناديل الحمراء والخضراء والزرقاء التى تشبه العيون ، وفى الليل يسير الله داخل الكنيسة ومعه الام المقدسة والقديس نيكولاى . توب . توب . توب . توب . فيدخل الرعب قلب حارس الكنيسة ! وأضافت مقلدة أمها :

- ايه يا عصفورتى . عندما يأتى يوم القيامة ستطير كل الكنائس الى السماء .



فسألت موتكا بصوت أجش ونبرات متقطعة :

- بأجراسها ؟

- بأجراسها ، وفى يوم القيامة سيذهب الخيرون الى الجنة ، وسيحترق الغاضبون فى نار أبدية لا تنطفئ .  
هكذا يا عصفورتي . وسيقول الرب لأمى ولماريا « انكما لم تغضبا أحدا ، لذا اذهبا الى اليمين ، الى الجنة » وسيقول لكرياك وللجدة « أما أنتما فالى اليسار ، الى النار ! » كما سيذهب كل من يفطر فى وقت الصيام الى النار .  
ونظرت الى أعلى ، الى السماء محملقة وقالت :

- انظرى الى السماء دون أن يهتز لك جفن وسترين الملائكة .

أخذت موتكا تنظر الى السماء ، وانقضت دقيقة فى صمت وسألتها ساشا :

- أترين ؟

فأجابت موتكا بصوت أجش :

- لا أرى شيئا .

- أما أنا فأراهم ، يطيرون على صفحة السماء ،  
أجنحتهم صغيرة ، صغيرة كأجنحة البعوض .  
فكرت موتكا ناظرة الى الأرض ثم سألت :

- وهل ستحترق الجدة فى النار ؟

- ستحترق يا عصفورتى •

وكانت احدى جوانب الصخرة تلتصق بمنحدر مغطى  
بحشائش خضراء تغرى بلمسها باليد وبالرقاد عليها ،  
فرقدت عليها ساشا وتدحرجت الى أسفل فرقدت موتكا  
أيضا - وعلى وجهها تعبير فى منتهى الجدية - وتدحرجت  
فتمزق قميصها من على الكتف ، وقالت ساشا بمرح :  
- كم هذا مضحك !

وصعدتا الى أعلى ليتدحرجا مرة أخرى ، ولكن وصل  
الى آذانهما صراخ حاد تعرفانه جيدا • أوه • ياللفظاعة !  
كانت الجدة - الهماء المعضمة المحنية الظهر التى يتطاير  
شعرها الاشيب مع الريح - ممسكة بعصا طويلة تطرد  
الأوز من الحديقة صارخة :

- أفسدتم كل الكربن يا ملاعين ، لتقص رقابكم،  
لعنكم الرب ثلاثا ، يا مصائب ، الا تنفقون •

ولما رأت الصغار رمت بالعصا والتقطت فرع شجرة  
من على الأرض ، وأمسكت بساشا من رقبتها بأصابعها  
الجافة الصلبة كالكماشة وأخذت تضربها ، فاخذت ساشا  
تبكى من الألم والخوف • وفى هذه الاثناء اقترب ذكر أوز  
من العجوز وفح شيئا ما ، ولما عاد الى بقية زملائه حيوه  
جميعا مشجعين • كاك كاك كاك ! ثم بدأت الجدة تضرب  
موتكا فتمزق قميصها مرة أخرى •

توجهت ساشا وهى تشعر بالتعاسة والشقاء باكية  
صارخة الى البيت لتشكو ، وسارت وراءها موتكا باكية  
أيضا ، بصوت أجش دون أن تمسح عيونها ، وكان وجهها  
كله مبتلا كما لو صب عليه ماء .

ولما رأتهما أولجا تعجبت وقالت :

– يا الهى ! يا أمنا التى فى السموات !

وبدأت ساشا تقص ، ودخلت الجدة صارخة تسب  
وتلعن ، وغضبت فيكلا أيضا فامتلا المنزل بالضوضاء .  
وامتقع وجه أولجا من الحزن وقالت لساشا مهدئة :

– معلهش معلهش ! انها جدتك وسترتكبين ذنبا  
كبيرا اذا غضبت عليها . معلهش يا صغيرتى !

وكان نيكولاى يتعذب من الصراخ الدائم ومن الجوع  
والحر والروائح الكريهة، وكان يكره ويحتقر الفقر ، ويشعر  
بالخجل من والديه أمام زوجته وابنته ، فضاق الآن ذرعا  
وقال لأمه بصوت باك :

– لا يحق لك ضربها ! ليس لك أى حق مطلق فى  
ضربها .

فصرخت فيكلا حانقة :

– تجلس على الفرن وتجلجل ! ما الذى جاء بكم الى  
هنا يا آكلى الروث !؟

وأسرعت ساشا وموتكا وكل البنات فى الصعود على  
الفرن وتجمعن خلف ظهر نيكولاى ، وصرن ينصستن الى  
الحديث فى صمت وخوف ، ودقت قلوبهن الصغيرة بصوت  
مسموع . وعندما يكون أحد أفراد الاسرة مريضا يقاسى  
من مرضه - الذى لا شفاء منه - من زمن بعيد ، فإنه توجد  
أحيانا فترات عصيبة يرغب فيها كل أقاربه فى موته فى  
خجل وفى السر ، فى أعماق اعماقهم . اما الاطفال فهم  
وحدهم الذين يخافون موته ، وعندما تلوح هذه الفكرة  
تمتلئ قلوبهم بالرعب . وفى هذه اللحظة نظرت البنات الى  
نيكولاى حابسين انفاسهن وعلى وجوههن يظهر حزن عميق ،  
وصرن يفكرن فى أنه قريبا سيموت وشعرن برغبة جامحة  
فى البكاء ، وفى أن يظهرن له بعض العطف والشفقة .  
واقترب نيكولاى من أولجا كأنه يحتذى بها ، وقال  
لها بصوت خفيض مرتجف :

- أولجا يا عزيزتى ، لا أستطيع مواصلة هذه الحياة ،  
لقد انهارت قواى ، بحق الرب وبحق المسيح اكتبى لاختك  
كلافديا ابراموفنا ان تبيع أو ترهن أى شئ وترسل لنا  
نقودا لنغادر هذا المكان . ثم اضاف مبتثسا :

- أوه يا الهى . ليتنى القى ولو نظرة واحدة على  
موسكو ليتنى أراها - أمنا - فى المنام .

ولما خيم الظلام على البيت بعد هبوط المساء ، كانت  
الصدور منقبضة لدرجة انه من الصعب أن يتفوه احد

بكلمة • وأخذت الجدة الغاضبة تغمس قطعة من خبز الشوفان فى فنجان ماء ، وتمتصها ، وظلت تمتصها لمدة ساعة كاملة • واحضرت ماريا دلو اللبن بعد أن حلبت البقرة ووضعتة على الارىكة فأخذت الجدة تملأ الطواجن الفخارية باللبن وتفعل ذلك ببطء مطمئنة ان أحدا لن يشرب منه شيئا لأن الوقت كان صيام العذراء وصبت مقدارا صغيرا جدا فى طبق فنجان لاطعام طفل فيكلا الرضيع • ولما خرجت مع ماريا لنقل الطواجن الى الكوخ نهضت موتكا فجأة ونزلت من على الفرن بسرعة واقتربت من الارىكة حيث كان فنجان الجدة بخبزها ومائها وصبت فيه اللبن الموجود فى طبق الفنجان •

وعادت الجدة وواصلت مص الخبز وأكله فأخذت ساشا وموتكا تنظران اليها من على الفرن فى منتهى الرضا من ان صيام الجدة قد بطل ولا بد انها ستذهب الى جهنم • وهكذا هدأت نفسيهما وخلدا الى النوم • وصارت ساشا تتصور والنوم يداعب جفونها - يوم القيامة : تضطرم النار فى فرن كبيرة مثل فرن صانع الفخار ، ويأتى الشيطان الأسود الجسم ذو القرون الشبيهة بقرون البقره ليسوق الجدة الى النار بعصا طويلة كالتي كانت تطرد بها الأوز من الحديقة •

فى عيد العذراء - فى الحادية عشرة مساء تصاعدت  
الصرخات من المروج حيث كان الشباب يلهو ، وجرى الجميع  
متجهين الى القرية . ولم يفهم أحد من الجالسين عند المنحدر  
ما سبب الضجيج ، ثم سمع صراخ مبتئس من ناحية  
القرية : « حريق ! حريق ! » .

التفت الجالسون أعلى المنحدر الى القرية فظهرت أمام  
أعينهم صورة رهيبة غير عادية ، رأوا على سطح منزل من  
الخوص عمودا من نار طوله حوالى متران يدور بجذون  
قاذفا بالحمم والشرر فى جميع الاتجاهات مثل النافورة .  
وفى الحال شبت النار فى كل السطح وتصاعدت ألسنتها  
اللامعة وسمع صوت النار تفج ملتهمة كل ما على السطح .

وبهت ضوء القمر وامتلأت كل القرية بالضوء الأحمر  
المرتعش المنبعث من النيران ، وتنابعت الظلال السوداء على  
الأرض وعبق الجو برائحة الشياطين ، وكان الناس يهرولون  
ولا يستطيعون الكلام من الرعدة التى تملكتهم ، ويتصادمون  
ويتعشرون ، ويرون بصعوبة ولا يتعرفون على بعضهم  
البعض لعدم تعودهم على الضوء الساطع . تملك الجميع  
الرعب ، وأكثر ما كان يخيف الناس إن الحمام يطير فوق  
النيران فى الدخان ، ومن الغريب أن أصوات الغناء  
والموسيقى لا زالت تتصاعد من الحانة التى لم يعلم روادها  
بعد بخبر الحريق .

وصرخ أحدهم بصوت متحشرج عال :

- ان منزل العم سيمون يحترق !  
وأخذت ماريا تسير بعصبية حول منزلها باكية  
خائفة تصطك اسنانها مع أن الحريق بعيد فى الطرف  
الآخر من القرية ، وخرج نيكولاى من البيت ، وجرى  
الأطفال فى قمصانهم .

وضرب أحدهم بمطرقة على لوح صاج بوم . بوم .  
بوم . . . . . فأنقبضت قلوب الجميع من هذا الرنين الكريه ،  
وخرجت النسوة العجائز بالأيقونات ، وأخرج الفلاحون  
بهاائمهم من الحظائر ، كما أخرج الجميع صناديقهم وحاجياتهم  
من الدور . وانطلق فرس شرس مشهور بعض الخيل  
وجرى ذهابا وايابا بطول القرية صاهلا ضاربا الارض  
باقدامه ثم توقف بجوار عربة وأخذ يرفسها بقدميه  
الحلفتين .

ودقت أجراس الكنيسة على الشاطئ الآخر .

وبجوار البيت المحترق كانت الحرارة شديدة ،  
والضوء ساطعا لدرجة أن المرء يستطيع أن يميز بوضوح  
أصغر قطعة تبن على الأرض . وعلى أحد الصناديق التى  
استطاع الرجال اخراجها من البيت جلس سيمون . وهو  
فلاح أحمر الشعر كبير الانف لابسا طاقيته حتى أذنيه .  
وكانت زوجته راقدة على الأرض ، دون وعى ، وجهها الى  
أسفل ، تنأوه . كما كان هناك رجل عجوز ، فى حوالى

الثمانين ، عارى الرأس ، قصير القامة ذو لحية كبيرة ، يشبه الكهنة ، لم يكن من أهل القرية ، والظاهر ان له علاقة بالحريق . كان هذا العجوز يحوم حول المكان حاملا صرة بيضاء تنعكس النيران على صلغته .

واقترب العمدة انتيب سيد لنكوف - الاسمر الوجه والشعر - من المنزل المحترق ، حاملا فأسا حطم بها النوافذ الواحدة بعد الأخرى لسبب غير مفهوم ، ثم حطم مدخل المنزل وصرخ قائلا :

- أيتها النسوة . احضروا الماء ! الى بماكينة الحريق ! هيا بسرعة !

فحملها الرجال على أكتافهم . هؤلاء الرجال الذين كانوا يلهون فى الحانة من دقائق قليلة ، وكانوا جميعا مخمورين ، يتعشرون ، على وجوههم تعبير العجزة ، واعينهم دامعة . وصرخ العمدة الذى كان مخمورا مثلهم :

- الى بالماء يا بنات ! هيا بسرعة !

فصارت البنات والنسوة تجرى بسرعة لملء الدلاء من النهر ثم يفرغونها فى ماكينة الحريق . وكذلك كانت أولجا وماريا وساشا وموتكا يحملن المياه . اشترك فى ذلك كل النسوة والاولاد . وكان خرطوم المياه يفتح والعمدة انتيب ممسكا به ضاغطا على فوهته ليزيد من اندفاع الماء ، يوجهه تارة الى الباب وتارة الى النوافذ ، فقال البعض مشجعا :



— حسنا يا انتيب ! حسنا !

وتقدم انتيب من المدخل داخل فى النار وصرخ  
قائلا :

— ضخوا يا رجال ! فى هذا الوقت العصيب لابد  
من العمل !

وكان معظم الرجال واقفين لا يفعلون شيئا ، لم يكن  
احد منهم يعرف ما يجب عمله بل لم يكن احد يستطيع  
شيئا . ولقد كان هناك غير بعيد جرن قمح وتبن ، واكواخ  
مخازن ، وحظائر ، واكواخ وقود . كما وقف كريك وابوه  
العجوز أوسيب ضمن الواقفين ، وكأن العجوز يحاول  
مدارة وقوفه دون عمل فتوجه للمرأة الراقدة على الأرض  
قائلا :

— لا تحزننى يا قريبتى ! ان المنزل مؤمن عليه ، فلم  
الحزن ؟

وأخذ سيمون يحكى للرجال عن سبب الحريق ،  
فقال :

— هذا العجوز المسك بصرتة — خادم الجنرال  
جو كوف . . . كان يعمل عند الجنرال جو كوف — اسكنه الله  
جناته — طاهيا . جاء فى المساء قائلا « اسمح لى ان أبيت  
عندك الليلة . . . » حسنا ، شرب كل منا كوبا من الفودكا  
معلوم . . . وحمى المرأة السموار لتسقى العجوز الشاى .

ليتها لم تفعل • واذا بالنار تخرج من مدخنة السموار ،  
اذن فى السقف حالا ، فى البوص ، وطبعاً ••• وكدنا  
نحن ايضا ان نحترق • بل لقد احترقت طاوية العجوز •  
يا للمصيبة !

استمر الدق على لوح الصاج كما كانت أجراس  
الكنيسة تدق أحيانا ، وتوقفت أولجا فى النور تلهث  
وتنظر برعب الى الخراف الحمراء بسبب ضوء النيران والى  
الحمام الوردى الذى يطير وسط الدخان ، ومن بدء الحريق  
كانت تجرى من النهر واليه تشعر بأن رنين الطرقات على  
لوح الصاج يغوص فى روحها كالسكاكين ، وبأن هذا  
الحريق لن ينطفئ أبدا ، وبأن ساشا قد تاهت • ولما وقع  
سقف المنزل محترقا سيطرت عليها فكرة بأن القرية كلها  
لا بد ستحترق فأحست بالضعف التام ولم تستطع مواصلة  
حمل الماء • فجلست بجوار المنحدر حيث جلست بعض  
النسوة يولولن •

ولكن ها هو الحولى وبعض العمال قد أتوا من الناحية  
الأخرى ، من عزبة السادة ، على عربتين وأحضروا معهم  
ماكينة حريق أخرى • كما جاء طالب من السادة ممتطيا  
صهوة جواد مرتديا جاكته بيضاء مفتوحة ، كان شابا  
صغير السن • وارتفعت الفئوس ، ووضعوا سلما على  
جدار المنزل المحترق صعد عليه خمسة رجال معا وفى  
مقدمتهم الطالب ، وبوجه محمر أخذ يصرخ بصوت مرتفع  
مبحوح وبلهجة واثقة كأن اطفاء الحرائق شئ عادى بالنسبة

له • وأخذوا فى فك القوائم الحشبية التى تقوم عليها  
الجدران كما فكوا خوص حظيرة الحنازير والجرن المجاورين  
فارتفعت أصوات حادة تقول :

— لا تسمحوا لهم بالتحطيم ! لا تسمحوا •

فتقدم كريك من العمال بثقة كما لو كان يرغب فى  
منعهم من ذلك العمل ، ولكن أحد العمال لوى ذراعه وأداره  
للخلف وصفعه على قفاه ، فتصاعدت الضحكات ، وضربه  
العامل مرة أخرى فوق كريك على الأرض وابتعد زاحفاً  
على أربع •

ومن بيت السادة قدمت أيضاً فتاتان — غالباً شقيقتنا  
الطالب ، ووقفنا عن بعد لمشاهدة الحريق ، وانطفأت القوائم  
الحشبية ولكن مازال الدخان يتصاعد منها بكثافة • وكان  
الطالب ممسكاً بخراطوم المياه موجهها تيار الماء الى تلك  
القوائم تارة ، والى جمع الفلاحين تارة ، والى النسوة تارة  
أخرى ، فتوجهت اليه الفتاتان بتحذير وقلق صارختين :  
« جورج ! جورج ! » (١) •

انطفأ الحريق وعندما بدأ الناس يتفرقون لاحظوا أن  
الفجر قد بزغ ، وإن الجميع شاحبون وسمرو الوجوه  
قليلاً — هكذا يخيل للمرء فى الصباح الباكر عندما تنطفئ

---

(١) الاسم الصحيح بالروسية هو جيورجى ولكن بعض أبناء  
الطبقة الارستقراطية يقولون جورج للتدليل — المترجم •

فى السماء أواخر النجوم • وأخذ الفلاحون يضحكون  
ويتفكهون على طاهى الجنرال جوكونف ، وعلى طاقيته التى  
احترقت • وكأنهم يريدون ان يلعبوا لعبة الحريق مرة  
أخرى ، بل وكأنهم حزنوا قليلا من أن الحريق انتهى بهذه  
السرعة ،

وتوجهت أولجا الى الطالب قائلة :

– لقد قمت يا سيدى بعمل طيب • لو كنت عندنا فى  
موسكو لرأيت كل يوم حريقا :

فسألتها احدى البننتين :

– وهل أنت من موسكو ؟

– أجل • أجل • كان زوجى يعمل فى «سلافيانسكى  
بازار » ، وأشارت الى ساشا التى التصقت بها من البرد،  
وأضافت :

– هذه ابنتى • هى أيضا من موسكو •

فقال البننتان للطالب بضع كلمات بالفرنسية فأعطى  
الآخر عشرين كوبىكا للطفلة •

ولما رأى العجوز أوسيب ذلك ، داعبه أمل فقال  
للطالب :

– يجب أن نشكر الرب يا سيدى المحترم ان الريح

لم تكن شديدة ، والا لاحتقرت القرية كلها فى ظرف ساعة .  
وأضاف بخجل مخفضا صوته :

– ان الجو بارد والانسان فى حاجة الى الدفء . . .  
الا تتكرم على بثمان نصف زجاجة • ولم يعطوه شيئا فسعل  
وتوجه الى داره • ووقفت أولجا طويلا ناظرة الى السادة ،  
ورأت كيف عبرت عرباتهم النهر على المعدية، ثم كيف ساروا  
على المروج الى أن وصلوا الى عربة كبيرة كانت فى انتظارهم  
هناك • ولما عادت الى المنزل أخذت تقص على نيكولاى  
بانبهار :

– كم كان منظرهم جميلا ! كم هم طيبون ! والبنتان  
كملائكة الخير !

فقالت فيكلا – التى كانت تغالب النعاس • بغضب:

– فليذهبوا الى الجحيم !

- ٦ -

كانت ماريا تعتبر نفسها تعسة وكانت تتمنى الموت •  
ولكن هذه الحياة – بفقرها وقذارتها وسبابها البذئ –  
كانت تروق لفيكلا ، فكانت تأكل كل ما يقدم لها ، وتنام  
فى أى مكان وعلى أى شئ ، وكانت تدلق الماء القذر الملئ

بالنفايات أمام باب البيت رأسا بل وتسير عليه بقدميها  
الخافيتين ، وقد كرهت أولجا ونيكولاى من أول يوم لان هذه  
الحياة لم ترق لهما • وكانت تقول لهما بغیظ :

— سنرى ماذا ستأكلون هنا يانبلاء موسكو !  
سنرى !

وفى أحد أيام سبتمبر ، صباحا ، احضرت فيكلا  
دلوين مديئين بالماء من النهر وكانت متوردة الحدين من  
البرد ، وتظهر عليها آثار الصحة والجمال • ولما دخلت  
البيت رأت أولجا وماريا جالستين الى المائدة تشربان  
الشاي ، فقالت لهما بتهكم :

— شاي وسكر ! يا للسيدات المحترمات ! يا للنظام  
الجديد : يوميا تشربان الشاي • احترسا والا اصبتما  
بانتفاخ من كثرة الشاي • وأضافت ناظرة بكره الى أولجا :  
— امتلأت أصداعك أثر حياتك فى موسكو —  
يا غليظة !

ثم ضربت أولجا على كتفها بالعصا التى كانت تحمل  
عليها الدلوين ، فأخذت المرأتان وصارتا ترددان :  
« يا الهى ! يا الهى ! »

ثم توجهت فيكلا الى شاطئ النهر لغسل الثياب ،  
وأخذت تسب طوال الطريق بصوت مرتفع مسموع فى  
البيت •

غربت الشمس وبدأ ليل طويل من ليالى الخريف ،  
وفى المنزل أخذ الجميع - ما عدا فيكلا التى توجهت الى  
الشـاطىء الآخر - يغزلون الحرير ، الذى يأخذونه من  
المصنع المجاور للقرية ، وكان ذلك يجلب لهم دخلا اسبوعيا  
حوالى عشرين كوبيكا .

وأخذ العجوز يتحدث أثناء العمل قائلا :

لقد كان الحال أفضل بكثير أيام القنانة ، كان العمل  
والأكل والنوم بنظام ، على الغذاء يعطونك الشورية والأرز  
وعلى العشاء أيضا شوربة وأرزا ، أما الخيار والكرنب فدون  
حساب . على حريرتك ، تأكل منها كما تشتهى نفسك .  
وكان النظام أكثر جدية كل يعرف حدوده . .

كان المصباح الوحيد يدخن ويضىء المكان اضاءة  
ضعيفة . واذا حجب أحدهم ضوء المصباح بحيث يقع الظل  
على النافذة كان ضوء القمر يرى بوضوح ، وكان العجوز  
أوسيب يحكى ببطء عن الحياة قبل الغاء القنانة : كيف كان  
السادة يخرجون للصيد بخيلهم وكلابهم المدربة ، ويملئون  
هذه الأماكن الفقيرة المملة بالمرح والحياة ، فعند توقفهم  
للراحة فى القرى يسبقون اللاحين الفودكا ، وكيف كانت  
العربات المحملة بالصيد الوفير ترسل الى موسكو للسادة  
الصغار ، وكيف كان المذنب يعاقب بالجلد والنفى وكيف  
كان الطيب يكافأ .

كما قصت الجدة - التى تتمتع بذاكرة طيبة - بعض ذكرياتها ، فحكّت عن سيدتها الطيبة المتدينة وزوجها -  
اللاهى السكير وبناتها اللاتى تزوجن زيجات سيئة : واحدة تزوجت بسكير والأخرى بفقير والثالثة هربت ( ولقد ساعدتها الجدة - التى كانت شابة صغيرة عندئذ - فى الهرب ) ثم كيف قتلهن الحزن سريعا مثلما قتل أمهن . وأبكتها هذه الذكريات .

وفجأة طرق الباب ، فانتفض الجميع ، وجاء صوت من خلف الباب :

- أيها العم أوسيب . اسمح لى بقضاء الليل عندك !  
ودخل عجوز صغير أصلع ، طاهى الجنرال جوكونف .  
نفس العجوز التى احترقت طاقيته . جلس وأخذ يسمع ثم بدأ هو الآخر يقص بعض ذكرياته . وكان نيكولاى جالسا على الفرن يستمع ويلقى باستئلته عن اصناف الطعام التى كانت تطهى للسادة ، ودار الحديث عن أنواع اللحوم والمرق والصلصات ، وأخذ الطاهى - الذى يتمتع كذلك بذاكرة طيبة - يذكر اسماء الأصناف التى لا تطهى حاليا ، مثل صنف كان يطبخ من أعين العجول ويسمى ب :

« بعد أن تستيقظ . صباحا » ، وسأله نيكولاى :

- هل كنت تطهى الصنف المسمى ب « كوفته المارشال » ؟



- لا • فقال نيكولاى متهمكما :

- ايه • ياللطهارة !

أما الصغيرات فقد كن على الفرن جالسات او راقدات  
تنظرن الى أسفل دون أن يغمض لهن جفن • ويخيل الى  
المرء أن عددهن كبير جدا • وكانت القصص تروق لهن فكن  
يتنهذن ويرتجفن وتصفر وجوههن من الانبهار والخوف •  
وكن ينصتن الى الجدة - التى تقص اشيق من الجميع -  
بأنفاس محبوسة خائفين ان يحدثن أى حركة •

ثم بدأ الجميع - فى صمت - فى الاستعداد للنوم •  
وأخذ العجائز الذين تأثروا بالقصص والذكريات تأثرا  
بالغا يفكرون بانبهار فى ان الشباب جميل ، ومهما كانت  
مشاكله فلا تبقى منه الا الذكريات المليئة بالحياة والمرح •  
وشعروا كأن يدا باردة تعتصر قلوبهم عندما فكروا فى  
الموت الذى أصبح غير بعيد •• من الافضل الا يفكر المرء  
فيه !

انطفأ المصباح ، وصارت كل الأشياء - الظلام وضوء  
القمر فى النوافذ والهدوء ، وصرير المهد - تذكرهم بان  
العمر على وشك الانتهاء وان المرء لا يستطيع ان يرجعه  
ابدا ••• واذا داعب النوم جفونك ونسيت ما يحيط بك  
اذ بأحد النائمين الى جوارك يلمس كتفك فجأة ، أو تضرب  
أنفاسه فى وجهك فيطير النوم من عينيك وتشعر بجسدك

كله ينمل ، وتتوارد على رأسك افكار سوداء عن الموت ،  
فاذا انقلبت على الجانب الآخر تنس الموت ولكن تمتلئ رأسك  
بالافكار القديمة المملة المعتادة عن الحاجة والفقر وعن علف  
البهائم وعن ارتفاع سعر الدقيق، وبعد قليل تصل بأفكارك  
الى أن حياتك قد انتهت ولن تستطيع ان تعيدها ...

وتنهد الطاهى : « أوه • يا الربى ! »

سمعت طريقة خفيفة جدا على النافذة ، لابد انها  
فيكلا قد عادت ، فقامت أولجا متثابئة ، متممة بالصلاة ،  
وفتحت الباب الداخلى ، ثم رفعت المزلاج عن الباب الخارجى  
وفتحته ، ولكن لم يدخل أحد بل هبت ريح باردة وملاً  
ضوء القمر المدخل ، ورأت أولجا الشارع الهادى خاليا من  
المارة كما رأت القمر سابحا على صفحة السماء •

وقالت أولجا :

— من هنا • فجاء الرد :

— انا • ها أنا !

وبجوار الباب وقفت فيكلا ملتصقة بالجدار عارية  
تماما ، ترتجف وتصطك اسنانها من البرد فبدت تحت  
ضوء القمر اللامع بيضاء جميلة غريبة ، وكانت الظلال  
ولعان جسدها تحت ضوء القمر أول ما يسترعى الانتباه،  
كما ظهرت جيدا حواجبها السوداء وصدرها النافر •

وقالت فيكلا :

- لقد نزع عني الشبان على الضفة الأخرى كل ثيابي  
وتركوني هكذا . . . وجئت الى هنا بغير ملابس . . . كما  
ولدتني أمي . احضري لي شيئا ألبسه !

فقالت لها أولجا التي بدأت ترتجف هي الأخرى :  
- فلتدخلي البيت !

- أخاف ان يرانى العجوزان .

وفعلا كانت الجدة قد قلقت وبدأت تتمتم كما سأل  
العجوز « من هناك ؟ » فأحضرت أولجا قميصها وجونلتها  
وألبست فيكلا ، ثم دخلتا معا بهدوء وأقفلتا الباب  
باحتراس حتى لا يسمع له صرير . وقالت الجدة بغضب  
بعد أن تعرفت على فيكلا :

- أنت يا جميلة ؟ الا تهملين يا سيدة نصف الليل ؟  
. . . ألا تأخذك مصيبة ؟

فتمتمت أولجا وهي تغطي فيكلا :

- معلهش ! معلهش يا عصفورتى .

ثم ساد الهدوء ثانية . ودائما كان نوم القوم قلقا ،  
فلكل من بالبيت شيء يضايقه ويمنع النوم عن عينيه :  
فالعجوز يقاسى من آلام فى ظهره ، والجدة مشغولة بمشاكل

البيت ، غاضبة دائما • والاطفال يشعرون بالجوع ولدغ الحشرات ، وكذلك هم الآن • كان الجميع ينامون نوما قلقلًا يتقلبون ويهدون وينهضون لشرب الماء •

وفجأة انفجرت فيكلا باكية بصوت مرتفع غليظ ، ولكنها سريعا ما حبست صوتها ، ولم يعد يسمع الا شهيقها الذى أصبح مكتوما وأكثر خفوتا الى أن هدأت تماما •

ومن وقت لآخر كانت دقات الساعة تأتي من الضفة الأخرى ولكنها كانت دقات غريبة ، فبعد أن دقت الخامسة دقت الثالثة !

وتنهذ الطاهي قائلا : « أوه • يا الهى ! »

كان من الصعب أن تحكم بمجرد النظر الى النافذة هل طلع الفجر أم أن القمر هو الذى يضىء ؟ حين نهضت ماريا وخرجت لتحلب البقرة ، كان صوتها وهى تصرح فى البقرة يصل الى آذان الراقدين ، كذلك خرجت الجدة ، وكان الظلام لا يزال يخيم على البيت ومع ذلك بدأت معالم البيت تظهر •

ونزل نيكولاى - الذى لم يغمض له جفن طوال الليل - من على الفرن ، وفتح صندوقه الأخضر وأخرج منه حلة الساقى وارتداها ثم اقترب من النافذة ونفض الغبار العالق بالكم وتحسس السياقة - وابتسم • ثم خلعها باحتراس وخبأها فى الصندوق وصعد على الفرن ثانية •

عادت ماريا وأخذت تحمى القرن ، ويبدو أنها لم تستيقظ تماما بعد ، ولكنها بدأت تستيقظ الآن وهى تعمل وغالبا كانت تحلم بشيء ما أو تذكرت حديث الأمس اذ انها تمطت بلذة أمام القرن وقالت :

- لا . ان الحرية افضل من عهد القنانة .

## - ٧ -

جاء السيد . هكذا كان اهل القرية يسمون محضر المدينة . وكان أهل القرية يعرفون موعد وسبب حضوره قبل ان يحضر باسـبوع . ولم يكن فى قرية جوكوفو الا اربعون بيتا فقط ولكن تراكت عليها ضرائب وعجز فى السداد للسلادة اصحاب الارض تربو قيمته على ألسنى روبل .

توقف المحضر فى الحانة حيث تناول «حضرتة» كوبين من الشاي ثم توجه سائرا الى بيت العمدة حيث تجمع هناك كل المدينين . كان العمدة شابا فى حوالى الثلاثين الا انه كان صارما ، يأخذ جانب الحكومة دائما بالرغم من أنه كان فقيرا ومدينا هو الآخر ، ويبدو أنه كان معجبا بعموداته ، يروق له الشعور بالسلطان ولا يعرف طريقا آخر لاثهاره الا الصرامة . وكان الجميع ينصـتـون له اذا تكلم فى

الاجتماعات ويخافونه • وكثيرا ما كان يهجم على أحد  
المخمورين بالقرب من الحانة ويوثق يديه ويعتقله لمدة يوم  
أو اثنين فى غرفة المقبوض عليهم • ولقد تحفظ على الجدة  
ليلة كاملة ذلك عندما حضرت مرة اجتماعا بدلا من العجوز  
أوسيب أو أخذت تسب بعض الحاضرين •

لم يستوطن العمدة المدينة ابدا ، ولم يقرأ كتابا ، مع  
ذلك تعلم بعض الكلمات والعبارات الذكية التى كان دائما  
يستعملها فى حديثه مما جعل الفلاحين يحترمونه بالرغم  
من انهم كثيرا ما كانوا لا يفهمونه •

دخل اوسيب - حاملا دفتر حساباته - بيت العمدة  
حيث يجلس المحضر يقيّد الحسابات فى الدفتر العمومى •  
كان المحضر رجلا كبير السن ، نحيفا ، أبيض الشعر ،  
مرتديا معطفا رمادى اللون • وكان المنزل نظيفا والجدران  
مزينة بالصور المقصوفة من المجلات الملونة ، وفى أهم ركن  
بجوار الايقونة علقت صورة للأمير باتنبرج أحد أمراء  
بلغاريا السابقين ، وبجوار المائدة وقف العمدة انتيب  
سيد لنكوف عاقدا يديه على صدره ، وقال للمحضر عندما  
جاء دور أوسيب :

- انه - يا سيدى المحترم - مدين بمائة وعشرين  
روبلا • لقد دفع آخر مرة روبلا وذلك قبيل عيد القيامة ،  
ومن يومها لم يدفع كوبيكاً واحدا •

فرفع المحضر عينيه الى أوسيب وسأله :

— لماذا يا أخينا ؟ فأجاب اوسيب متوترا :

— أرجو من سيادتكم ان تنظر الى بعين الرحمة الالهية .  
اسمح لى أن أشرح الأمر . فى الصيف الماضى قال لى المالك  
صاحب الارض « بع يا أوسيب ما عندك من التبن . . بع »  
ولم لا ؟ كان عندى حوالى مائة حمل للبيع كانت النسوة  
قد حصدها ، حسنا . بدأت الفصال للبيع . . . ولكن كل  
شئ يسير على مايرام ، بمحض الارادة . . .

وأخذ يشكو من العمدة متوجها الى بقية الفلاحين كمن  
يطلب منهم أن يشهدوا على قوله ، واحمر وجهه ونضح  
منه العرق وأصبحت عيناه حادتين غاضبتين .

فقاطعه المحضر قائلا :

— أنا لا أفهم لم تتحدث عن هذا . أنا أسألك . . أنا  
أتوجه اليك بالسؤال لماذا لا تدفع ما عليك ؟ أنتم لا تدفعون  
وأنا المسئول !

— لا أستطيع أن أدفع !

فقال العمدة :

— كل هذه الكلمات كما ترون سيادتكم دون نتيجة  
صحيح ان آل تشيكلدييف من الفئة التى لا تتمتع بالكفاية،

ولكن اسمح لى أن أسأل الباقيين عن السبب فى عدم السداد  
السبب كله - القودكا وحب اللهو دون أى تقدير سليم .  
كتب المحضر بضع كلمات فى دفتره وقال لأوسيب  
بهدهوء وبلهجة عادية كمن يطلب مثلاً كوباً من الماء :  
- اذهب الى الشيطان !

وسريعاً ما غادر المحضر القرية . جلس فى عربته  
وسعل وإذا نظرت حتى الى ظهره الطويل النحيف لفهمت  
انه لم يعد يذكر شيئاً عن أوسيب ، أو عن العمدة ، أو عن  
القرية كلها بل لا بد انه يفكر فى شىء خاص به .

وبعد قليل كان أنتيب سيد لنكوف يخرج من بيت  
آل تشيكلد ييف حاملاً السموار وتجرى الجدة وراءه صارخة  
بصوت حاد بأقصى ما تستطيع من قوة قائلة :

- لن أعطيه لك ! لن أعطيه لك يا ملعون !  
وكان العمدة يسير مسرعاً بخطوات واسعة والجسدة  
تتبعه لاهثة ، منحنية الظهر ، تتعثر ، فى أقصى درجات  
الغضب ، وقع منديلها على كتفها ، يتطاير شعرها الأشيب  
مع الريح ، وفجأة توقفت وأخذت تدق على صدرها بشورة  
عارمة وتصرخ بأعلى صوت وبلهجة منغمة ، مولولة :

- أيها المسيحيون . يا من تؤمنون بالمسيح ! أغيثونى !  
أغيثونى أيها الطيبون ! جاى . . جاى . . دافعوا عني  
يا أحبائى !



فقال لها العمدة بلهجة صارمة :

— أيتها الجدة ، ثوبى الى رشدك !

وأصبح الملل يسيطر تماما على بيت آل تشيكلد ييف بعد فترة السموار . لقد كان فى نزع السموار شىء محقر ، كما لو أن المنزل قد فقد كرامته . كان من الأفضل لو أن العمدة أخذ المنضدة وكل الأرائك وكل الأوانى فلم يكن ليبدو البيت خاليا مثل ما يبدو الآن . أخذت الجدة تصرخ وماريا تبكى فبكت البنات لبكائها وداخل العجوز احساس بالذنب فجلس صامتا خافضا رأسه ، كما صمت نيكولاى الذى كانت الجدة تحبه وتعطف عليه ، أما الآن فقد فقدت الشعور بالعطف وهجمت عليه تسبه وتعنفه ضاربة الهواء بقبضتها تحت أنفه تماما ، وأخذت تصرخ انه هو المذنب والمسئول عن كل المصائب ، وفعلا لماذا كان يرسل أقل القليل من المال عندما كان يتفاخر بنفسه فى خطاباتة بأنه كان يحصل فى « سلافيانسكى بازار » على خمسين روبلا فى الشهر ؟ ولماذا أقدم الى هنا بل بصحبة عائلته ؟ واذا مات فبأى نقود سيدفن ؟ .. حينئذ صار منظر نيكولاى وأولجا وساشا فى منتهى البؤس .

فسعل العجوز وأخذ طاقيته وتوجه الى العمدة . كان الظلام قد خيم ، وجلس أنتيب سيد لنكوف بجوار الفرن مشغولا بلحام بعض الاشياء المعدنية ، نافخا الهواء بفيه ، وكان جو البيت حارا خائقا ، وجلس أطفاله النحاف ذؤو

الوجوه القذرة- الذين لا يتميزون عن أطفال آل تشيكلدييف  
- يلعبون على الأرض ، وكانت زوجته الحامل ، الغير جميلة ،  
التي يمتلئ وجهها بالنمش ، تغزل الحرير .

وعلى الأريكة رصت خمس سموات . رسم أوسيب  
علامة الصليب أمام صورة الأمير باتنبرج ثم قال :  
- انتيب . اظهر من عندك رحمة الهية . اعطني  
السموار . بحق المسيح !

- اذا أحضرت ثلاثة روبلات أخذت السموار .  
لا أستطيع !

واصل انتيب النفخ ففحت النيران وانعكس ضياؤها  
على أسطح السموات ، وأخذ العجوز يقلب طاقيته بين  
يديه وفكر قليلا ثم قال :  
- اعطنيه !

نظر اليه العمدة وكان وجهه مغطى بالسناج فانقلب  
سماره الى سواد وأصبح منظره أشبه بالسحرة وقال بسرعة  
وصرامة :

- الأمر الآن يتعلق بمجلس المحافظة ، وتستطيع أن  
تتوجه بشكواك الى اللجنة الادارية التي ستعقد فى السادس  
والعشرين من الشهر الحالى شفويا أو كتابة .

ولم يفهم أوسيب شيئا ولكنه اقتنع وعاد الى البيت .  
وبعد عشرة أيام حضر المحضر ثانية حيث قضى فى  
القرية حوالى ساعة وذهب . وفى هذه الأيام كان الجو باردا

والريح تهب باستمرار ، وتجمد النهر مع ان الثلج لم يبدأ  
فى التساقط بعد ، لذا كانت الطرق غير صالحة . وفى أحد  
الأعياد الدينية جاء بعض الجيران الى أوسيب مساء للزيارة  
وتبادل الحديث ، وكانوا يجلسون فى الظلام لأن القيام بأى  
عمل فى العيد حرام لذا لم يضيئوا المصباح ، وتبادلوا بعض  
الأخبار المحزنة ، مثل ان الحكومة استولت على الدواجن من  
بيتين أو ثلاثة تحصيلاً للديون ، ونفقت الدواجن فى الطريق  
الى المدينة لأن أحدا لم يطعمها . كما استولوا على بعض  
النعاج التى ماتت احداها عندما كانوا ينقلونها من عربة  
لأخرى فى احدى القرى ، وأخذ المجتمعون يناقشون مسألة:  
من المذنب ؟ فقال أوسيب :

– المحافظة ! من غيرها ؟

– طبعا المحافظة .

كانوا يدينون المحافظة فى كل المصائب – فى الديون  
وفى المشاكل وفى قلة المحصول ، مع ان أحدا منهم لا يفهم  
ماذا تعنى كلمة محافظة .

وقد أخذ الفلاحون هذه العادة – عادة سب المحافظة –  
عن أغنياء الفلاحين وعن التجار وأصحاب الحوانيت والورش  
والحانات الذين زاروا مجالس المحافظة ولم يرق لهم ما  
وجدوه من معاملة فأخذوا يسبون المحافظة فى حوانيتهم  
ومقاهيهم أمام الفلاحين .

كما دار الحديث عن ان الله لم يسمح بسقوط الثلج

بعد وبذلك لا يستطيعون نقل الاخشاب على الزحافات .  
وقبلا من حوالى خمسة عشر أو عشرين عاما كان حديث  
العجائز فى جوكونفو شيقا . فكان حديثهم عادة مسربلا  
بالأسرار مليئا بالاشارات المبهمة والتوقيعات والتكهنات  
المختلفة ، أما الآن فلم تكن هناك عند أحد منهم أى أسرار  
بل كانت حياة كل منهم مكشوفة كالقف المفتوح ، والحديث  
يدور عن الحاجة وعن قلة علف البهائم وعن أن الثلج لم  
يتساقط بعد ٠٠٠

وخيم الصمت قليلا ثم تذكروا الدواجن والنعاج  
وأخذوا يناقشون مسألة من المذنب ؟ وقال أوسيب بملل  
ورتابة :

— المحافظة ! من غيرها ؟

- ٨ -

كانت هناك كنيسة كبيرة تقع على بعد ستة فراسخ  
من القرية ، فى كوسجروف . ولم يكن أهل القرية يزورونها  
الا عند الحاجة : لتعميد الأطفال أو لعقد قران أو لصلاة أعياد  
الفطر ، وكانوا عادة يصلون فى الكنيسة الصغيرة التى تقع  
على الضفة الاخرى من النهر . وفى الأعياد اذا كان الجو  
معتدلا ترى البنات بمناديلهن الزاهية الحمراء والصغراء  
والخضراء تعبرن المروج فى طريقهن الى الكنيسة ، ويلتزم

الجميع منازلهم اذا كان الجو سيئا . وفى نهاية الصوم كانوا يتناولون فى الكنيسة . وفى عيد القيامة يمر القسيس على البيسوت حاملا الصليب ويحصل خمسة عشر كوبىكا ممن لم يحضر للتناول فى الكنيسة بعد الصيام الكبير .

كان العجوز لا يؤمن بالله لأنه لم يفكر فى هذا الموضوع أبدا . صحيح انه يؤمن بوجود قوى خارقة ولكنه يعتقد ان ذلك الأمر يخص النسوة فقط ، واذا ما دار الحديث أمامه عن الدين أو عن المعجزات وتوجه اليه أحد بسؤال ما كان يجيب دون رغبة حاكا شعر رأسه :  
- ومن أين لأحد أن يعرف ؟!

أما الجدة فكانت تؤمن ايمانا ضعيفا ولقد كان الامر مختلطا فى رأسها ، فاذا ما بدأت فى التفكير فى الذنوب والموت والعقاب استولت مشاكل الحاجة والفقر على تفكيرها لتنسيها فى الحال ما كانت تفكر فيه . ولم تكن تحفظ أى صلوات، وعادة مساء قبل النوم تقف أمام الأيقونة وتتمتم:  
- سلام لعذراء كازانسك ، وعذراء سمولنسك ،  
وعذراء ترويرتشتس (١) . . .

وكانت ماريا وفيكلا ترسمان علامة الصليب وتصومان كل عام بلا أى فهم ولم يعلم أحد الاطفال الصلاة أو أى قواعد دينية ولم يكلمهم أحد عن الله ، بل كانوا فقط.

---

(١) أسماء ثلاث كاتدرائيات مشهورة فى مدن روسيا الكبرى .

يمنعونهم من أكل ما يفطر وقت الصيام . وهكذا كان الحال  
فى بقية أسر الفلاحين : كان المؤمنون قلة والفاهمون أقل .  
وفى نفس الوقت كان الجميع يحبون الكتاب المقدس حبا جما  
ولم يكن أحد يملك انجيلا ، ولم يكن أحد يقرأ أو يوضح لهم  
الآيات لذا كان الجميع يحترمون أولجا لأنها تقرأ الكتاب  
المقدس ويتكلمون معها ومع ساشا بكل احترام .

وفى الأعياد الدينية كثيرا ما كانت أولجا تزور كنائس  
القرى المجاورة وتزور أيضا مدينة المركز حيث توجد سبع  
وعشرون كنيسة . . وكان تفكيرها عادة مشوشا فعندما  
تكون فى الكنيسة تصلى تنسى أن لها أسرة ، وفى البيت  
عندما تعود تكتشف بفرح ان لها زوجا وطفلة فتقول  
والسعادة تضىء وجهها :

— لقد أعطانى الرب ما يسعدنى !

وكانت تشعر بالقرف والعذاب مما يجرى فى القرية  
كان الفلاحون يشربون فى يوم عيد النبى الياس وفى عيد  
العذراء وفى عيد رفع الصليب . . وبمناسبة عيد مولد  
قديس الكنيسة المحلية شرب الفلاحون ثلاثة أيام متوالية  
سويا فصرفوا على ذلك خمسين روبلا من صندوق القرية ثم  
أخذوا يجمعون نقودا أخرى من كل البيوت لمواصلة شرب  
الفودكا . وذبح آل تشيكلدييف خروفا فى أول أيام العيد  
وصاروا يأكلون من لحمه صباحا وفى الغداء وفى العشاء ،  
بل صار الاطفال يستيقظون ليلا ليأكلوا، وطوال أيام العيد

الثلاثة كان كريك مخمورا لدرجة رهيبة ، وباع كل مايملك  
ليشرب به فودكا ، حتى لقد باع طاقيته وحذاءه ، وكان  
يضرب ماريا لدرجة انهم كانوا يصبون عليها الماء لتفريق  
وبعد العيد كان الجميع يشعرون بالخجل والغثيان .

وبالمناسبة ، فى هذا العام عاشت القرية مرة عيـدا  
دينيا حقيقيا ، كان ذلك فى أغسطس عندما كان رجال الدين  
يمرون على القرى حاملين احدى الأيقونات الشهيرة ، ويوم  
انتظرت القرية زيارة الأيقونة كان الجو هادئا والسحب  
تغطى السماء ، ومن الصباح الباكر توجهت الفتيات  
بمناديلهن ذات الألوان الزاهية لمقابلة الأيقونة حيث وصلت  
مساء وحولها مسيرة صليبية تردد التراتيل الدينية ، وفى  
نفس الوقت دقت أجراس الكنيسة - التى وراء النهر - ثلاثا  
وسد جمع من فلاحى القرية والقرى المجاورة الشارع ،  
وتصاعد الضجيج وثارَت الأتربة وازداد الزحام ..

وخرج العجوز والجددة وكريك وأيديهم ممدودة تجاه  
الأيقونة ، ونظروا اليها بنهم وأخذوا يكررون باكين :  
- أيتها العذراء الرحيمة ! امنا الرحيمة !

وكما لو أدرك الجميع فجأة أنه لا فراغ بين الأرض  
والسما ، وان الأغنياء والأقوياء لم يستولوا بعد على  
كل شئ ، وأن هناك حماية من المصائب وحياة العبودية ومن  
الحاجة والفقر المدقع الغير محتمل ومن الفودكا الرهيبة .  
وكانت ماريا تصرخ باكية :

— يا أمنا الرحيمة ! يا أمنا ! ..

ولكن بعد أن انتهت الصلاة وذهبوا بالأيقونة عاد كل شيء لحالته القديمة ، وها هي الأصوات المخمورة الغضة تتصاعد ثانية من الحانة ...

لم يكن يخاف الموت الا أغنياء الفلاحين الذين كلما ازدادت أموالهم كلما قل إيمانهم بالله وبخلاص الروح ، ولكن لخوفهم من الفناء ، وعلى أى حال — كانوا يزورون الكنيسة للصلاة ووضع الشموع .

أما الفلاحون الفقراء فلا يخافون الموت ، ولم يكن العجوز أو الجدة يغضبان اذا قال لهما أحد انهما قد كبرا وحن أجلهما ، ولم يكن أحد يشعر بالخجل من أن يقول لفيكلا أمام نيكولاى انه عندما سيموت الأخير سيعافى زوجها دينيس من الجندية وسيعود الى بيته . أما ماريا فلم تكن فقط لا تخاف الموت بل كانت تحزن من أن الموت يتأخر هكذا ، وعادة تفرح جدا عندما يموت أحد أطفالها .

ومع انهم لا يخافون الموت الا أنهم ينظرون للمرض برعب حقيقى ، فاذا شعرت الجدة بأقل توعك — عسر هضم أو رعشة خفيفة مثلا ترقد على الفرن فى الحال ثم تأخذ فى التأوه المستمر بصوت عال .. آه . انى أموت ! فيسرع العجوز باحضار القسيس .

وكثيرا ما يدور الحديث عن نزلات البرد ، وعن ديدان البطن ، وعن الثعابين التى تتجول فى الامعاء وتصعد الى



القلب فتخنقه ، ولكن نزلات البرد كانت اكثر ما يخيفهم ، لذا فانهم يرتدون ثيابا ثقيلة ويتدفئون حوم الفرن حتى فى الصيف ، وكانت الجدة تحب العلاج وكثيرا ما كانت تذهب الى المستشفى حيث تذكر ان عمرها ثمانية وخمسون عاما ، لا سبعون ، لانها تخاف من ان الطبيب اذا علم عمرها الحقيقى لن يعالجها بل سيقول لها ان من الواجب عليها ان تموت لا أن تعالج ، وكانت عادة تغادر القرية الى المستشفى فى الصباح الباكر مصطحبة معها طفلتين أو ثلاثا ، وتعود فى المساء جوعانة غاضبة ومعها بعض النقاط لنفسها وبعض المراهم للاطفال . وصحبت معها مرة نيكولاى الذى صار يتناول لمدة اسبوعين نقطا ما ويقول انه يشعر بتحسن .

كانت الجدة تعرف كل الاطباء والتمرجيين فى القرى والمدن الواقعة حول جوكوفو فى حدود مسافة ثلاثين فرسخا ولم يرق لها أحد منهم . وعندما مرت الأيقونة الشهيرة على القرية فى اغسطس الماضى اخبرها أحد القساوسة عن تمرجى جديد ، كان يعمل قبلا فى الجيش . ونصحها بزيارته . فاطاعت الجدة النصيحة وعندما تساقط أول ثلج توجهت الى المدينة واحضرته ، وكان عجوزا ملتحيا ، وجهه مغطى بالعروق الزرقاء . فى هذا الوقت كان بالمنزل ترزى عجوز ذو نظارات مخيفة يقص صديريا من بقايا قماش قديم ، ومعه صبيان يصنعان من بقايا الصوف اخفافا شتوية ، كما جلس كريك - الذى طرد من عمله لسكره الدائم - يصلح سلسلة حديدية ، لذا كان البيت

مزدحمًا والجو خانقا عطنا ، وبعد ان فحص التمرجى نيكولاى قال انه لا بد من وضع كاسات هواء .  
واثناء وضع كاسات الهواء وقف الترزى العجوز وكرياك والبنيات ينظرون ، وخيل لهم انهم يرون كيف يخرج المرض من جسم نيكولاى ، ورأى نيكولاى ايضا كيف تلتصق الكاسات بصدره ، وكيف تمتلىء ببطء بدم قاتم اللون ، وشعر فعلا بأن شيئا ما يخرج منه فصار يبتسم فرحا راضيا . وقال الترزى :

— هذا حسن ، جعل الله فى هذا الشفاء .

وضع التمرجى اثنتى عشرة كأسا ثم اثنتى عشرة أخرى ثم ارتوى بالشاى وذهب . وأخذ نيكولاى يرتجف ، وصار لون وجهه رماديا — وكما قالت النسوة — انكمش وجهه واصبح كقبضة اليد ، وازرقت اصابعه . تغطى ببطانية ومعطف ولكن شعوره بالبرودة اخذ فى الازدياد . وفى المساء داخله شعور بالقلق والضيق ، وطلب ان ينزلوه من على الفرن ثم طلب من الترزى ان يكف عن التدخين، واخيرا هدا تحت البطانية ، وقبيل الفجر مات .

- ٩ -

أوه . . يا له من شتاء قاس طويل !  
لقد فرغ القمح من البيت قبل عيد الميلاد وبدأوا فى شراء الدقيق ، وكان كرياك — الذى أصبح يعيش الآن فى

المنزل - يشور كل مساء ويملا قلوب الجميع بالرعب ، ثم يتعذب في الصباح من الصداق والحجل لدرجة تثير الشفقة ، وكانت ابغفرة في الحظيرة نخور صباحا ومساء من الجوع مما يقطع قلب الجدة وماريا . كان الشتاء قارس البرد ، والثلج يتساقط بكثرة واستمرار . وامتد الشتاء ، ففي عيد البشارة هب اعصار شتوى حقيقى وفي عيد القيامة تساقط الثلج . ولكن ها هو الشتاء ينتهى ففي أوائل ابريل كان النهار دفئا والليل باردا . الشتاء يتراجع . ولكن ها قد انتصر نهار دافئ وأخيرا ذاب الجليد وزقزقت العصافير ، وغطت المياه المروج ، وأصبح الفراغ الواقع بين جوكوثو وبين القرية التى على الجانب الاخر من النهر كخليج ضخم ، يطير البط البرى على صفحته ، وكان الغروب الملهب ، ذو السحب المنتفخة يعطى كل مساء شيئا غير عادى ، جديدا ، غير معقول . يعطى هذا المنظر الذى لاتصدقه عندما ترى نفس السحب ونفس الألوان مرسومة على لوحة .

وكانت اللقالق تطير بسرعة كبيرة وتصرخ كالخزينة كما لو انها تدعوك أن تصاحبها ، وكانت أوجا تقف طويلا على الشاطئ تنظر الى المياه ، الى الشمس ، الى الكنيسة التى كما لو انها استعادت شبابها ، وتنهمر الدموع من عينيها ، وتنحبس أنفاسها ، وتشعر برغبة عارمة فى أن تذهب الى بعيد حتى الى آخر العالم ، وكانت قد قررت أن تعود الى موسكو لتعمل كخادمة وأن تصحب معها كريك

ليعمل كبواب أو فى أى عمل آخر • آه لابد من الاسراع  
فى الذهاب •

فلما جفت الطرق وأصبح الجو دافئا استعدت  
للرحيل • خرجت أولجا وساشا فى الفجر وعلى ظهر كل  
منهما صرة • وخرجت ماريا لتوصلهما ، وكان كرياك  
مريضا فقرر البقاء أسبوعا آخر • رسمت أولجا علامة  
الصليب ناظرة للمرة الأخيرة الى الكنيسة ، وتذكرت زوجها  
فلم تبك بل تغضن وجهها وصار غير جميل مثل وجه  
العجائز ، لقد تغيرت كثيرا عما كانت قبل الشتاء • نحف  
جسدها وساء منظرها وابيض شعرها قليلا ، وبدلا من  
الابتسامة اللطيفة التى كانت تضىء وجهها ، صار على وجهها  
تعبير خنوع وحزن وظهر فى نظرتها شئ من الغباء والسكون  
كما لو أنها أصبحت صماء • وكانت تشعر بالحزن لمغادرة  
القرية والفلاحين ، وتذكرت كيف حملوا نيكولاى ميتا ،  
يتوقفون عند كل منزل للوداع ، وكيف كان الجميع يبكون  
يشاركونها الحزن • وخلال الصيف والشتاء التى قضتها فى  
القرية كثيرا ما كانت تفكر أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ  
من البهائم وكانت الحياة بينهم مخيفة : فهم أفظاظ ، غير  
شرفاء ، أقذار ، مخمورون ، يعيشون بلا وفاق ، دائمو  
العراك ، لذا فان كلا منهم لا يحترم الآخر ويخاف منه  
ويشك فيه • من الذى يفتح الحانة ويسكر الفلاحين ؟  
فلاح • من الذى يصرف النقود العامة والمدرسية والكنائسية  
ويبعثرها على الحمر ؟ الفلاح • من الذى يسرق جاره ويحرق

محصوله ويشهد ضده شهادة زور من أجل زجاجة من  
الفودكا ؟ من أول من يتكلم فى الاجتماعات ضد الفلاح ؟  
الفلاح . فعلا ان الحياة بينهم مخيفة ولكنهم آدميون يتعذبون  
ويكون كبقية الآدميين ، ولا يوجد شىء سيئ فى  
حياتهم الا وله مسببات ، العمل المضنى الذى يملأ كل الجسد  
بالآلام ليلا ، الشتاء القاسى ، المحصول القليل ، الزحام فى  
البيوت . ولا خلاص من ذلك ولا مساعدة ، ولا يوجد من  
ينتظر منه الخلاص والمساعدة . الفلاح الأغنى والأقوى  
لا يساعدهم لانه هو أيضا فظ ، غير شريف ، مخمور ،  
ويسب بنفس البذاءة . ان أصغر موظف أو أى خولى يعامل  
الفلاح معاملته للشحاذ ويكلم عجائزهم وكبارهم بلا أدنى  
احترام . ويظن انه يملك الحق فى ذلك . وهل يمكن أن  
ينتظر المرء المساعدة أو المثل الطيب من الأنانيين، الطماعين،  
الشواذ ، الكسالى الذين يجيئون الى القرية فقط ليحرقوا  
ويسرقوا ويخدعوا ويرهبوا الفلاح ؟ وتذكرت أولجا منظر  
عجائز الفلاحين المستضعفين عندما قيد كريك فى الشتاء  
الماضى ليعاقب بالجلد . . . وامتلات روحها بالآلم والشفقة  
تجاه هؤلاء الناس ، وصارت طول الطريق تلتفت الى  
بيوتهم .

وبعد أن رافقتهما ماريما لمسافة ثلاثة فراسخ توقفت  
لتودعهما . ثم ركعت على ركبتيهما وولولت واضعة رأسها  
على الأرض .  
- ها أنا وحدى ثانية . . يا لى من تعسة ! يا لى  
من مسكينة !

وصارت تولول لمدة طويلة وكلما التفتت أولجا رأتها  
راكعة على ركبتها ممسكة رأسها بيديها والغربان تحوم  
حولها .

وارتفعت الشمس الى كبد السماء ، وصار الجو  
حارا ، واختفت قرية جوكوئو تماما . ولكن السير يخفف  
عن أولجا وساشا ، وسريعا ما نسيتا القرية وماريا ،  
وصارتا مرحتين ، وكان كل ما ترياه فى الطريق يطربهما .  
ها هو تل صغير . وها هو طابور من أعمدة التلغراف كل  
عمود وراء الآخر متجهين وجهة غير معلومة ثم يختفى فى  
الأفق ويسمع طنين غريب فى الأسلاك الممدودة بينها .  
وها هى عزبة صغيرة ترى من بعد وسط الحصرة ، يتصاعد  
منها الدخان ويخيل للمرأة - لسبب غير مفهوم - ان الحياة  
هناك سعيدة . وها هو هيكل عظمى لحسان . كانت  
العصافير تزقزق بلا انقطاع ، وتنادى القبرات بعضها  
البعض ، ويصرخ طير الدرجاتش كما لو كان أحدهم يجذبه  
من منقاره الطويل .

وعند الظهر وصلت أولجا وساشا الى قرية كبيرة ،  
وفى شارع واسع من شوارعها قابلتا العجوز طاهى الجنرال  
جوكوف . ويبدو أنه كان يقاسى الجرب بصلعته الحمراء التى  
ينضج منها العرق وتلمع تحت أشعة الشمس . ولأول  
وهلة لم يتعرف أحدهما على الآخر ثم التفتا وعرفا بعضهما  
فى نفس اللحظة وواصل كل طريقه دون تبادل أى كلمة .  
واختارت أولجا منزلا يظهر عليه الغنى وتوقفت أمام نوافذه

المفتوحة ، وانحنى ثم قالت بصوت مرتفع رفيع :  
مغنية :

— أيها المسيحيون الطيبون • بحق رحمة المسيح •  
اعطوني شيئاً من رحمتكم • رحم الرب موتاكم وأسكنهم  
سماواته !

وغنت ساشا :

— أيها المسيحيون الطيبون • اعطونا بحق المسيح •  
اعطونا شيئاً من رحمتكم رحم الرب موتاكم ...

« تمت »

## الغبر رقم ٦

### شخصيات الرواية

Ivan Dimitrich Gromov      ايفان ديمترتش جروموف

Andrei Iefimich Ragin      أندريه يفيمتش راجين

Michail Averianich      ميخائيل أفريانتش

Evgeniy Fiodorich Khobotov      يفجينى فيودريتش خوبوتوف

Nikita      نيكيتا

Mosseika      موسيكا



فى فناء المستشفى وفى وسط غابة صغيرة كثيفة من الشجيرات والحشائش يقع مبنى صغير ذو سقف معدنى صدىء تخرج منه مدخنة قديمة مائلة ، سلماته الخشبيه معطنة ومغطاة بالحشائش وعلى واجهته بقايا من طلاء . وتطل تلك الواجهة على المبنى الرئيسى للمستشفى أما مؤخرته فتطل على الحقل الذى يفصله عن المبنى سور المستشفى الرمادى اللون ذو المسامير ، ويكتسب المبنى بالسور ذى المسامير المقلوبة ذلك المنظر الكريه القاتم الخاص بكل مبانى المستشفيات والسجون عندنا .

إذا لم تكن أشواك النباتات تخيفكم فلنتقدم سويا على هذا الطريق الضيق المؤدى لذلك المبنى لنرى ما بداخله . فاذا فتحنا الباب الأول نجد أنفسنا فى الفناء الداخلى حيث ترى بجوار الجدار وبجوار الفرن أكواما من مخلفات المستشفى : مراتب ومعاطف . وسراويل وقمصان قديمة وأحذية بالية لا تصلح لشيء . كل هذا مخلوط وملقى فى كومة تتعفن وتتصاعد منها رائحة خانقة .

وغالبا ما يضطجع الحارس نيكيتا على هذه الكومة . غليونه فى فمه ، وهو جندى مسرح بهتت شرائطه الحمراء ،

ذو وجه قاس مسن وحواجب كثيفة تضيف على وجهه سمة  
كلب البرارى . وأنفه أحمر . وهو غير طويل . يوحى  
منظره بأنه نحيف ولكن عوده صلب وقبضاته قوية . وهو  
ينتمى الى تلك الطائفة من الناس التى تتسم بالطيبة  
والايجابية والطاعة والغباء . تلك الطائفة التى تحب النظام  
أكثر من حبها لأى شىء آخر فى العالم ، لذا فانهم مؤمنون  
بأنه من الضرورى استعمال الضرب معهم ، فهو يضربهم  
على الوجه وفى الصدر وعلى الظهر أو على أى مكان آخر  
وهو متأكد تماما أنه لا يمكن للنظام أن يستتب هنا بدون  
استعمال الضرب .

وبعدئذ تدخلون الى غرفة كبيرة واسعة تشغل  
الجزء الأساسى من المبنى ، جدرانها ملطخة بطلاء قذر  
سماوى اللون . وسقفها مهيب - فمن الواضح أن الفرن  
يعمل ويدخن طول الشتاء وعندئذ يكون الجو فى الغرفة  
حارا ومشبعاً برائحة الخشب المحروق . أما النوافذ فإنها  
مشوهة من الداخل بقضبان حديدية والأرضية رمادية  
قذرة . وروائح الدرنب المسلوق وفتيل المصباح المحترق  
والبق والنشادر تملأ جو الغرفة ، وفى الوهلة الأولى تذكرك  
هذه الروائح ببيت الوحوش فى حديقة الحيوان .

وعلى الأسرة المثبتة فى الأرض يجلس رجال مرتدون  
معاطف زرقاء وطواقى . . المجازين . عدددهم خمسة .  
كلهم من الطبقة المتوسطة الا واحدا من أصل نبيل . أولهم  
من جهة الباب رجل من أبناء الطبقة المتوسطة ذو شارب

أحمر لامع وأعين دامعة • وهو يجلس واضعاً ساقيه  
تحتة • ينظر الى نقطة ثابتة • ليله ونهاره حزين يهز رأسه  
ويتنهد بعمق وعلى شفثيه ترتسم ابتسامة مريرة • قليلا  
ما يشترك فى الحديث وعادة لا يجيب على الأُسئلة الموجهة  
اليه : يأكل ويشرب بطريقة ميكانيكية وفقط عندما يقدم  
اليه الطعام • ويدل سعاله المؤلم الحاد ونحافته وخدوده  
الموردة على أنه مسلول •

وبعد يجلس عجوز ضئيل الحجم جم الحيوية  
والحركة ذو ذقن مدبب وشعر أسود مجعد كشعر  
الزنجى • أثناء النهار يسير فى الغرفة من نافذة لأخرى  
أو يجلس على سريريه على الطريقة التركية ودائما يصفر  
كطائر الثلج ويغنى متمتما ويقهقه • كما يظهر مرحة  
الطفولى وحيويته أيضا بالليل ، ذلك عندما يستيقظ  
ليصلى أو ليدق بيديه على صدره أو لينقر على الباب  
بأصبعه • ذلك هو اليهودى موسيكا ، عبيط ، جن من  
عشرين عاما عندما أتت النيران على ورشته الصغيرة لصناعة  
الطواقى •

وهو الوحيد من نزلاء عنبر نمرة ٦ الذى يسمح له  
بالخروج من المبنى بل والى خارج المستشفى • وهو متمتع  
بهذا الحق بصفته نزيل قديم ، وبصفته عبيط هادى غير  
مؤذ ، وبصفته مضحك المدينة • وقد اعتاد أهل المدينة  
رؤيته فى الشوارع وسط ثلة من الأطفال والكلاب • وهو  
يمشى فى الشارع مرتديا معطف المستشفى وعلى رأسه

طاقيته المضحكة ، منتعلا حذاءه أو حافيا ، وأحيانا بدون سراويل ويقف أمام الحوانيت ليشحذ كوبيكاً • أحيانا يعطونه كفاس (١) وأحيانا كسرة خبز وأحيانا كوبيكاً • وهكذا يعود الى المستشفى عادة شبعاً غنيا • ويستولى نيكيثا على كل مايحضره • يفعل الجندي ذلك بقسوة ، ويقلب جيوبه كلها ويشهد الله على أنه لن يسمح بعد هذه المرة قط بخروج اليهودي من المستشفى ويقسم بأنه يكره عدم النظام أكثر من أى شئ فى العالم •

وموسيكاً هذا خدوم ، فهو يقدم لزملائه الماء ويغطيهم وهم نيام ، ويعد بأنه سيحضر لكل منهم فى المرة القادمة كوبيكاً وسيصنع لكل منهم طاقية جديدة ، كما أنه يطعم بالملعقة جاره المشلول الذى يقع سريره عن يساره • وهو لا يفعل ذلك بدافع الشفقة أو بشعور انساني بل متأثراً بجروموف جاره من ناحية اليمين ، فهو يقلده ويطيعه •

ايفان ديمترتش جروموف رجل فى الثالثة والثلاثين من عمره ، من أصل نبيل • كان محضراً ، وسكرتيراً فى المحافظة • وهو يقاسى من وهم بأنه مطلوب القبض عليه • يرقد على سريره ملتفاً حول نفسه كحلقة أو يسير من ركن لآخر ، ونادراً مايجلس ، وهو دائماً قلق مضطرب مشدود الأعصاب كما لو كان يتوقع حدوث شئ ما • ويكفى أى

---

(١) الكفاس : مشروب روسي وهو منقوع بذور نبات يشبه العرقسوس عندنا • ( المترجم )

حفيف فى المدخل أو اى نداء فى الفناء الخارجى لان يرفع رأسه متصنعا : هل حضروا بلقبض عليه ! هل يبحثون عنه ؟ وعندئذ يرتسم على وجهه تعبير قلق لا نهائى وقرف .

وانى لمعجب بوجهه العريض البارز العظام ، ذلك الوجه الدائم الشحوب والتعاسة . ويعكس هذا الوجه كالمرآة روحه التى يعذبها الصراع والرعب الدائم ، وتعابير وجهه غريبة تدل على المرض ، ولكن قسماته الرقيقة - الدالة على العذاب العميق المخلص - قسمات عاقلة وراقية ، وفى عينيه بريق دافئ غير عليل .

وانى لمعجب به شخصيا ، فهو مؤدب ، خدوم ، مهذب فوق العادة مع الجميع الا مع نيكيتا ، فعندما يسقط من أحدهم زرار أو ملعقة نجده يهب من سريره ليلتقط ماوقع ويعطيه لصاحبه ، صباحا يرجو لرفاقه صباحا طيبا ومساء يتمنى لهم ليلة هادئة .

وبخلاف قلقه الدائم يظهر جنونه كالاتى : أحيانا فى المساء يللمم معطفه على جسمه ويبدأ فى السير من ركن لآخر مارا بين الأسرة . ويرتجف جسمه كله وتضطك أسنانه كما لو كان يعانى حمى شديدة . وفجأة يتوقف وينظر لرفاقه . ومن الواضح أنه يرغب فى أن يقول لهم أشياء فى منتهى الأهمية . ولكنه فى الغالب يظن أنهم لن يصغوا اليه أو لن يفهموه ، لذا يهز رأسه بشدة ونفاد صبر ويواصل خطواته . ولكن أخيرا تتغلب رغبته فى

الكلام على آية اعتبارات أخرى • ويبدأ فى اللام بحرارة •  
وكلامه مشوش محموم يشبه الهذيان • غير انك تلمس  
فى كلماته وصوته شيئاً طيباً جداً • وعندما يتكلم تستطيع  
ان تتعرف فيه على المجنون وعلى الانسان • ومن الصعوبة  
بمكان أن تنقل الى الورق كلماته المجنونة • فهو يتقدم  
عن ندالة البشرية وعن الاضطهاد • تلك الندالة وذلك  
الاضطهاد اللذان يخنقان الحق • ويتكلم عن الحياة الرائعة  
التي ستبنى على الارض بمرور الوقت • ويتكلم عن قضبان  
النوافذ التي تذكره كل دقيقة بقسوة المضطهدين • وبذلك  
يبدو حديثه أشبه بمقاطع غير منتظمة ومختلطة من ملاحم  
قديمة ولكن لم تتم بعد •

- ٢ -

من اثنى عشر الى خمسة عشر عاماً كان الموظف  
جروموف يقطن فى منزله الخاص الواقع فى الشارع  
الرئيسى بالمدينة • وكان جروموف هذا رجلاً جاداً محترماً  
فى بحبوحة من العيش • وكان له ولدان • سرجيى وايفان  
وعندما كان سرجيى طالباً فى السنة الرابعة فى الجامعة  
مرض بالسل الحاد وتوفى • وكما لو كانت هذه الوفاة  
بداية لسلسلة من المصائب التي هطلت على عائلة

جروموف • فبعد أسبوع من وفاة سرجيى قبض على الاب  
العجوز • وحوكم بتهمة التزوير والاختلاس • وسريعا  
ماتوفى فى مستشفى السجن اثر تيفود • وبيع المنزل  
والمنقولات بالمراد • وهكذا أصبح ايفان ديمترتش وأمه  
بدون أى دخل •

وقبل وفاة الأب كان ايفان ديمترتش يعيش فى  
بطرسبرج حيث كان يدرس فى الجامعة • وكان والده  
يرسل له شهريا من ستين الى سبعين روبلا وبذلك لم تكن  
لديه أى فكرة عن الحاجة • أما الآن فكان عليه أن يغير  
حياته تغييرا جذريا • فأصبح مضطرا لأن يعطى دروسا  
خصوصية من الصباح الى المساء لقاء أجر زهيد ، وأن  
يعمل بالنسخ ومع ذلك كان يتضور جوعا لأنه كان يرسل  
كل الدخل الى والدته • ولم يتحمل ايفان ديمترتش هذه  
الحياة طويلا • فانهارت معنوياته وساءت صحته فترك  
الجامعة وعاد الى المدينة حيث حصل بالواسطة على وظيفة  
مدرس فى مدرسة المدينة ولكنه لم يستطع أن يتفاهم مع  
زملائه • ولم يعجب به التلاميذ فترك الوظيفة • وتوفيت  
والدته • وعاش نصف سنة بدون عمل • على الحبز  
والماء • ثم عمل محضرا • وظل يشغل هذه الوظيفة الى  
أن طرد منها بسبب المرض •

ولم يكن يظهر أبدا بمظهر الانسان الصحيح حتى  
عندما كان شابا يدرس • فقد كان دائما شاحب اللون  
نحيفا وكثيرا ما كان يصاب بنزلات البرد وكان يأكل قليلا

وينام نوما مضطربا • وكانت رأسه تدور ويصاب بانهايار  
عصبى بعد كأس واحد من الخمر • ولأن يحب ان يكون  
وسط الناس ولكن لكونه سريع الغضب ولدقته فى المعاملة  
لم يستطع ان يتفارب مع أحد ولم يكن له أصدقاء • وكان  
يتحدث عن أهل المدينة باحتقار ، ويقول أن جهلهم الحاد  
وحياتهم الحيوانية الخاملة تجعله يحس بالقرف والغثيان  
وكان يتكلم بصوت عال رفيع ، بحرارة ، وحتما اما بغضب  
وعدم رضا واما بتعجب وانبهار ودائما باخلاص • وأيأ  
كان الحديث فهو دائما يرجعه لموضوع واحد : الحياة فى  
المدينة خانقة ومملة ، ولا يوجد عند الناس اهتمامات  
راقية ، بل يحيون حياة قاتمة بدون معنى ويحاولون  
زخرفتها بالعنف والشذوذ • والمداهنة ، ان الأندال  
شبعانون ومكسيون والشرفاء يقتاتون بالكاد ، والحاجة  
ملحة الى مدرسة والى جريدة محلية ذات اتجاه شريف والى  
مسرح والى مكتبات عامة والى تكاتف المثقفين ، ان المجتمع  
فى حاجة الى أن يعى نفسه جيدا ليملاء الرعب • وفى  
مناقشته لأحوال الناس كان يضع اللونين الأبيض والأسود  
فقط ولا يستعمل مابينهما من ألوان ، فالانسانية عنده  
تنقسم الى شرفاء وأندال ، لا وسط ، وكان يتكلم عن المرأة  
والحب بحرارة واندفاع ومع ذلك لم يعشق مرة •  
وبالرغم من طبعه الحاد وعصبيته فقد كان محبوبا  
فى المدينة وكان أهلها يدلونه بـ « فانيا » ، فان رفته  
الموروثة ومعاملته الشريفة وأخلاقه العالية وحلته القديمة



ومظهره العليل ومصائبه العائلية جعلت الناس يشعرون نحوه بشعور طيب دافئ حزين . بالاضافة الى ذلك فلقد كان مثقفا ، قرأ كثيرا . أحيانا كان يجلس فى النادى تتخلل أصابعه بعصبية شعر لحيته ويتصفح المجلات والكتب ، وعلى وجهه لا يرى تعبير من يقرأ بل من يبتلع الكلمات دون أن يمضغها ، ومن الممكن اعتبار القراءة احدى عاداته المرضية ، ذلك أنه كان يلتهم كل مايقع فى يده حتى اذا كان ذلك صحفا من العام السابق . أما فى بيته فكان يقرأ دائما مضطجعا .

### - ٣ -

فى صباح يوم من أيام الحريف رفع ايفان ديمترتش ياقة معطفه وسار فى حوارى وأزقة المدينة القذرة متجها الى أحد الأهالى ليحصل منه أحد وصولات المحكمة ، وكان مزاجه كعادته صباحا معتلا ، فقابل فى الطريق سجينين مقيدين فى حراسة أربعة من رجال الشرطة المسلحين . وقبلما ، كثيرا ماقابل ايفان ديمترتش سجناء ، وكانوا دائما يجعلونه يشعر بالعطف والحزن عليهم وباحساس مبهم بالذنب ، أما هذه المرة فقد داهمه احساس غريب غير عادى ، فلقد شعر لسبب ما فجأة بأنه من الممكن أن يقيد

ويقاد بهذه الصورة خلال هذه الطرقات القذرة الى السجن . وفى طريق العودة بجوار مكتب البريد قابل أحد رجال الشرطة من معارفه ، فحياه الشرطى وسار معه عدة خطوات ، فخیل له أن ذلك أمر داع للشك . وطول اليوم أثناء وجوده بالمنزل لم يستطع أن يطرد من مخيلته صورة المساجين والجنود المسلحين ، ومنعه قلق نفسى غير مفهوم من القراءة والتركيز ، ومساء لم يضىء غرفته ولم يستطع النوم ليلا . وظل يفكر أنه من الممكن أن يقبض عليه وأن توضع القيود فى يديه وأن يقاد الى السجن .

لقد كان يعلم أنه لم يقترب ذنبا ، وكان متأكدا أنه - فى المستقبل - لن يقتل أو يحرق أو يسرق ، ولكن أليس من الممكن أن يرتكب المرء جرما بدون قصد وبالصدفة ؟ والتهمة الملققة ؟ وأخيرا الغلطة القضائية أليس هذا ممكنا ؟ ألا يقول المثل الشعبى « ياما فى السجن مظالم » ؟ ان الغلطة القضائية فى ظل نظام القضاء الحالى ممكنة جدا . ان أولئك الناس الذين ينظرون لآلام الغير نظرة عمل مثل القضاة ورجال الشرطة والأطباء قد قسأهم التعود حتى أصبحوا لا يستطيعون النظر الى عملائهم نظرة غير شكلية حتى لو رغبوا فى عكس ذلك . ومن تلك الناحية لا فرق بينهم وبين الجزار الذى يذبح الخراف والعجول غير عابىء بالدم . وفى ظل تلك النظرة الشكلية الى الشخص ، لكى يحرم الانسان من حقوقه ويحكم عليه بالنفى ، يحتاج القاضى الى شىء واحد فقط . . الوقت .

الوقت الكافى للقيام ببعض الاجراءات الروتينية التى يقبض عنها القاضى مرتبه . وبعد ذلك ينتهى كل شىء . ولتحاول بعد ذلك أن تبحث عن العدل والحماية فى تلك المدينة الصغيرة القدرة التى تقع على بعد مائتى فرسخ من خط – السكة الحديد – ثم أليس من المضحك أن يفكر المرء فى العدالة عندما يعتبر المجتمع أن كل اضطهاد هو ضرورة مسببة وعاقلة وهادفة وان كل حكم يصدر بالعفو أو بالبراءة يقابل بشعور من عدم الرضا والرغبة فى الثأر ؟

وفى الصباح قام ايفان ديمترتش من على سريريه مرعوبا . ينضح جبينه عرقا باردا . ومتأكدا تماما أنه من الممكن أن يقبض عليه فى أى دقيقة . وكان يعتقد أنه مادامت أفكار الأمس ظلت تطارده طوال هذه المدة . اذا ففيها شىء من الحقيقة . فليس من المعقول أن تتوارد أفكار كهذه بدون أى سبب .

هاهو شرطى قد مر أمام نافذته : لابد أن هناك سببا . هاهما شخصان واقفان قرب المنزل صامتين . لماذا يصمتان ؟

وهكذا صار ايفان ديمترتش يتعذب ليل نهار . أصبح يتصور أن كل من يمر أمام النافذة أو يدخل الفناء فهو جاسوس أو مخبر .

وعادة عند الظهر يمر مأمور قسم البوليس فى عربته

ذات الحصانين قادما من عزبته الواقعة بجوار المدينة • ولكن يخيّل لايفان ديمترتش كل مرة أن العربة تسير بسرعة غير عادية وان على وجه المأمور يرتسم تعبير خاص : من الواضح أنه يسرع الى القسم ليعلن عن وجود مجرم خطير في المدينة •

وأصبح ايفان ديمترتش ينتفض عند سماع جرس الباب • ويزداد قلقه اذا رأى عند صاحبة المنزل أى زائر غريب • ويبتسم ويصفر اذا قابل أى شرطى حتى يظهر نفسه بمظهر الهادئ غير المهتم • وأصبح لا ينام الليل ولكنه كان يشخر ويتنهد حتى يوهم صاحبة المنزل بأنه مستغرق فى النوم • لأنه ان كان لا ينام فلا بد أن ضميره يؤنبه عن جرم ما - ويا له من دليل ! صحيح ان الحقائق والمنطق السليم تثبت أن كل هذه المخاوف ماهى الا هراء واضطراب فى الأعصاب وانه عند النظر الى السجن نظرة شاملة فانه فى الواقع غير مخيف طالما كان الضمير مستريحا • ولكنه كلما فكر بعقل ومنطق أكثر ازداد اضطرابه وعذابه الروحى • وكان مثله كمثّل الرجل الضال الذى يريد أن ينظف لنفسه مكانا فى غابة عذراء ، كلما عمل بفأسه فى الأشجار ازدادت الغابة كثافة • وأخيرا عندما وجد ايفان ديمترتش أن التفكير السليم غير مجد لم يعد يفكر وترك نفسه يغرق فى الخوف واليأس • فأصبح يحب الوحدة ويتجنب الناس • ولقد كان قبلا يكره وظيفته فأصبحت الآن بالنسبة له لا تطاق ،

فصار يخاف من أن يؤدي في العمل ، مثلا ، أن يضع له أحدهم رشوة في جيبه دون أن يلاحظ ثم تكتشف ، أو أن يخطيء بالصدفه في إحدى الأوراق الرسمية خطأ يمكن اعتباره نزويرا ، أو أن يفقد شيئا من مال الحكومة الموضوع في عهده . ومن الغريب أنه قبلا لم يكن يتميز بتفكير سلس مبتكر لهذه الدرجة التي وصل إليها الآن حيث يستطيع يوميا أن يخترع آلاف الطرق والأسباب التي من الممكن أن تجعله يقع تحت طائلة القانون . ومن ناحية أخرى لقد فقد كل اهتمام بالعالم الخارجي وخصوصا اهتمامه بالكتب ، كما فقد قوة ذاكرته .

وفي ربيع تلك السنة عندما ذاب الجليد أكتشفت قرب المقابر جثتان شبه عفنتان لعجوز وطفل عليهما آثار تدل على أن الوفاة لم تكن طبيعية ، وصارت قصة الجثتين والمجرم المجهول حديث المدينة . وحتى لا يظن أن إيفان ديمترتش هو القاتل صار يسير في شوارع المدينة مبتسما وإذا قابل أحدا من معارفه فانه يشحب ويحمر ويؤكد أنه لا يوجد عمل أكثر ندالة من قتل الضعفاء الذين لا سند لهم ، ولكنه سريعا مامل هذا الوضع الكاذب ، وبعد تفكير قليل قرر أن أفضل شيء في وضعه هذا هو أن يختبئ في مخزن المنزل بالبدروم . وظل في البدروم نهارا ثم ليلة ثم نهارا آخر وتجمدت أطرافه من البرد القارس فانتظر ظلمة المساء وذهب الى غرفته متلصصا ، وظل واقفا في منتصف الغرفة طول الليل ليلتقط أى صوت .

وفى الفجر عندما حضر الى المنزل عمال - كان ايفان ديمترتش يعلم جيدا أن صاحبة المنزل قد اتفقت معهم على الحضور لاصلاح الفرن فى المطبخ ، صور الخوف له أنهم رجال شرطة متخفون فى ملابس عمال ، فخرج بهدوء من الشقة والرعب يملأ قلبه ، وأطلق سداقيه للريح بلا سُترة عارى الرأس . . فجرت وراءه الكلاب نابحة ، وصرخ رجل خلفه ، وتصور ايفان ديمترتش أن كل قوى الاضطهاد فى العالم تجمعت لتطارده .

أمسك به الناس ، وأعادوه الى منزله ، وذهبت صاحبة المنزل للطبيب ، وحضر الطبيب أندريه يفيمتش - الذى سنتحدث عنه فيما بعد - ووصف له كمادات باردة على الرأس وأعطاه نقطا من محلول مهدئ ، وهز رأسه بحزن وأخبر صاحبة المنزل أنه لن يحضر مرة أخرى لأنه لا داعى لأن تمنع الناس من أن يفقدوا عقولهم فى هدوء .

ولما لم يكن عند ايفان ديمترتش دخل يسمح له بالمعيشة والعلاج فى المنزل ، فقد نقل الى المستشفى ووضع فى عنبر المرضى بأمراض تناسلية ، ولكنه لم يكن ينام ليلا ، وأصبح يقلق المرضى ، فأمر أندريه يفيمتش بأن ينقل الى العنبر نمرة ٦ .

وخلال عام نسيت المدينة ايفان ديمترتش تماما ، أما كتبه التى كومتها صاحبة المنزل فى ركن من الفناء الخارجى فقد مزقها الأطفال .

وكما قلت • فقد كان اليهودى موسيكا يجاور ايفان  
ديمترتش من اليسار ، أما جاره من ناحية اليمين فهو  
فلاح سمين بل مستدير كالكرة ، ذو نظرة غبية ووجه  
لا يحمل على قسماته أى معنى ، وهو حيوان ساكن نهم  
متسخ • فقد من زمن بعيد أى مقدرة على التفكير أو  
الاحساس ، ودائما تتصاعد منه رائحة أذى حادة وخانقة •

وعندما ينظف نيكيتا تحته وحوله يضربه بفضاعة  
وكل قوة • والفظيع هنا ليس أنه يضرب - فمن الممكن  
التعود على ذلك - ولكن الفظيع هو أن هذا الحيوان الغبى  
لا يتأثر بالضرب فلا يصدر عنه أى صوت أو حركة ولا  
يظهر أى تعبير فى عينيه بل فقط يتأرجح كالبرميل  
الثقيل تحت وطأة الضربات •

أما خامس نزلاء العنبر نمرة ٦ وآخرهم فهو رجل  
كان يشتغل فى البريد بالتصنيف ، أشقر صغير ونحيف •  
إذا نظرت الى عينيه الذكيتين الهادئتين التى تنظر اليك  
بوضوح ومرح يخيل اليك أنه يخفى سرا مهما سارا • انه  
يخفى أشياء ماتحت الوسادة وتحت المرتبة ، لا خوفا من  
أن يستولى عليها أو يسرقها أحد بل كان يخفيها خجلا •

وكان يقف أحيانا عند النافذة موليا ظهره لبقية الرفاق ويضع شيئا ما على صدره ويحنى رأسه ناظرا لهذا الشيء فإذا اقترب منه أحد فانه يحمر خجلا وينزع هذا الشيء ولكن من السهولة معرفة هذا السر .

كان يقول أحيانا لايفان ديترتش :

— فلتهنئنى ، لقد قدم اسمى للحصول على وسام « ستانسلاف » من الدرجة الثانية ، صحيح ان ذلك الوسام يمنح فقط للأجانب ، ولكن لسبب لا أعرفه استثنونى من هذا الشرط .

ثم يبتسم ويهز كتفيه قائلا :

— انها لمفاجأة بالنسبة لى .

فيرد عليه ايفان ديترتش بتجهم قائلا :

— انى لا أفهم شيئا فى هذه الأمور .

فيواصل المصنف السابق مبتسما :

— وهل تعرف ما أرغب فى الحصول عليه ان أجلا أو عاجلا ؟ انى واثق من أنى سأحصل على وسام « النجم القطبى » السويدي . انه لوسام يستحق التعب فهو عبارة عن صليب أبيض ذى شريط اسود ، فى غاية الجمال .

ويبدو أن الحياة لا تسير سيرا أكثر رتابة فى أى مكان آخر منها فى هذا المبنى . ففي الصباح يتوجه المرضى ماعدا المشلول والفلاح السمين الى الفناء الداخلى ليغتسلوا



من برميل المياه ويتجففوا بخرق المعاطف ثم يحضر لهم  
نيكيتا الشاي لكل مقدار كوز فيعبونه من كيزان صفيح .  
وفي الظهر يتناولون شربة كرنب وبرغل مسدوق وفي  
المساء يتكون عشاؤهم مما تبقى من البرغل . وفي الفترة  
التي تتخلل ذلك يرقدون أو ينامون أو يسيرون جيئة  
وذهابا من ركن لآخر ، أو ينظرون من النافذة ، وهكذا  
كل يوم ، حتى مصنف البريد فانه يتكلم يوميا عن نفس  
الأوسمة .

وقليلا ماترى وجوها جديدة فى العنبر رقم ٦ ، اذ  
قرر الطبيب عدم قبول نزلاء جدد ، أما الراغبون فى زيارة  
مستشفى المجاذيب فهم قلة فى هذا العالم . وكل شهرين  
يزور المبنى سيمون لازاريتش الحلاق ، ولن نتحدث عن  
كيفية قيام الحلاق بمهمته وكيف يساعده نيكيتا فى تأدية  
هذه المهمة ، ولن نتحدث عما يصيب المرضى بمجرد ظهور  
الحلاق الضاحك المخمور .

وبخلاف الحلاق لا يزور أى انسان هذا المبنى وبذلك  
كتب على المرضى ألا يروا من العالم الخارجى كل يوم سوى  
نيكيتا .

ولكن من مدة قصيرة سرت فى المستشفى اشاعه  
غريبة الى حد كبير .

لقد شاع أن الطبيب أصبح يزور العنبر رقم ٦ .

### اشاعة غريبة !

الدكتور أندريه يفيمتش راجين رجل غير عادي الى حد ما . يقال ان فى مطلع شبابه كان متدينا جدا وكان يعد نفسه ليسلك طريق رجال الدين ، وعندما أنهى المدرسة فى عام ١٨٦٣ قرر أن يدرس فى الأكاديمية الدينية ، ولكن والده - الطبيب الجراح - هزأ به وأعلن أنه لن يعتبر أندريه ابنه اذ أصبح الأخير قسيسا . ولست أعلم نصيب تلك الرواية من الصحة ، ولكن أندريه يفيمتش نفسه كثيرا ما اعترف بأنه أبدا لم يحب الطب أو أيا من العلوم الطبيعية عموما .

ومهما كان فانه أنهى دراسته فى كلية الطب ولم يصبح رجل دين ، ولم يظهر عليه أى تدين ، كما لم يكن يتشبه برجال الدين لا الآن ولا فى بداية حياته كطبيب يوحى مظهره الخارجى بثقل الظل والفظاظة كالفلاح الجلف، ويذكرك وجهه ولحيته وشعره الملتصق برأسه وبنيته الفوية الغير متناسقة بصاحب مقهى - على الطريق الرئيسى - متخيم وحاد الطبع ، وله وجه قاس ذو عروق زرقاء وأعين صغيرة وأنف أحمر ، وهو طويل القامة عريض

المنكبين ، وقبضاته ضخمة يبدو ان ضربه منها قد تودى بالمضروب ، ولكن خطواته هادئة ومشيته متزنة متلصصة ، واذا تقابل مع أحد في ممر ضيق فهو دائما الذي يتوقف أولا ليسمح للآخر بالمرور ويقول « آسف » لا بصوت غليظ ضخم كما هو متوقع بل بصوت رفيع هادىء ، وعلى رقبته ورم يمنعه من ارتداء قمصان بياقة منشاة مقفولة، لذا فهو يرتدى دائما قمصانا من قماش لين بسيط . وعموما لباسه لا يشبه لباس طبيب ، فهو ينتعل الحذاء الواحد لمدة عشر سنوات متصلة أما اللباس الجديد الذى يبتاعه من حانوت اليهودى فيبدو عليه كالقديم . وهو يستقبل المرضى ويأكل ويقوم بزياراته بنفس الرداء ، ذلك لا لبخله بل لعدم اهتمامه بمظهره الخارجى .

وعندما قدم أندريه يفيتمش الى المدينة ليشغل وظيفته كطبيب المستشفى وجد « مؤسسة البر » هذه فى حالة فظيعة . فيكاد المرء يختنق فى ممرات وعنابر وفناء المستشفى من رائحة الأذى ، وكان عمال المستشفى وعاملاتها بعائلاتهم وأولادهم يشاركون المرضى عنابرهم ، وكان الجميع يشكون من الصراصير والبق والفئران ، ولم يكن هناك أى أجهزة فى قسم الجراحة بل لم يكن هناك الا مشرطان فى كل المستشفى . ولم يكن بالمستشفى أجمعه ترمومتر واحد ، والبطاطس تحفظ فى الحمامات ، وملاحظ المستشفى وكبير المرضى وكل العاملين ينهبون المرضى باستمرار ، ومما يقال عن الطبيب القديم - الذى

أن يثغل وظيفة طبيب المستشفى قبل أندريه يفيمتش -  
انه كان يبيع كحول المستشفى سرا ، كما كون لنفسه  
حرىما خاصا من عاملات المستشفى والمرضى النساء .  
وكان أهل المدينة يعلمون جيدا كل هذا بل كانوا يضخمون  
هذه الحقائق ومع ذلك كانوا ينظرون لهذه الأشياء بهدوء ،  
بل كان البعض يبرر ذلك بقوله ان المستشفى لا تضم الا  
مرضى الطبقة الفقيرة والمتوسطة ومرضى الفلاحين الذين  
لا يمكن أن يكونوا مستائين من هذا الوضع اذ أن حياتهم  
المنزلية أسوأ من هذا بكثير . وليس من المعقول أن نقدم  
للمرضى البطل المشوى ! وكان البعض الآخر يبرر ذلك  
بقوله ان المدينة وحدها دون مساعدة المحافظة لا تستطيع  
أن تقوم على الوجه الأكمل بأعباء المستشفى ، وحمدا لله  
على أن بالمدينة مستشفى فذلك خير من لا شىء . ولم يقرر  
مجلس المحافظة فتح مستشفى أو عيادة خارجية فى المدينة  
أو بجوارها اعتمادا على وجود هذه المستشفى .

وبعد أن تفقد أندريه يفيمتش المستشفى وجد أنها  
لا أخلاقية بل ومضرة بالصحة العامة كما أنه رأى أن  
أفضل مايمكن عمله هو اطلاق سراح المرضى واغلاق  
المستشفى . ولكنه وجد أن الأمر لا يتعلق فقط بارادته  
الشخصية وأنه لا فائدة تجنى من طرد القاذورات المادية  
والأخلاقية من مكان طالما أنها ستنتقل الى مكان آخر ، لذا  
فلا بد من الانتظار حتى يتطهر كل شىء من تلقاء نفسه ،  
وبالإضافة الى ذلك - اذا شيد الناس مستشفى وتحملوا

مساوئها فإن ذلك يعنى أنهم فى حاجة اليها ، كما أن جميع المعتقدات البالية والأشياء القذرة الوضيعة ضرورية لأنها بمرور الوقت تتحول الى شىء مفيد ، كالروث حين يختلط بالتراب . ولا يوجد شىء طيب على ظهر الارض لم يحتو فى صورته الأولى على بعض القذارة .

وعندما تسلم أندريه يفيمتش مهام وظيفته كان من الواضح أن نظرتة الى هذه الفوضى تتسم باللامبالاة ، فقد طلب من عمال المستشفى عدم المبيت فى العنابر ، ثم طالب بوضع صوانين للأجهزة الطبية . أما الملاحظ وكبير المرضين ورئيسة الممرضات فقد بقوا فى أماكنهم .

ويحب أندريه يفيمتش العقل والشرف حسبا جما ولكنه لا يستطيع أن يصنع حوله حياة عاقلة وشريفة لأنه لم يكن يتمتع بما فيه الكفاية من قوة العزيمة والايمان بأنه على حق ، ولم يكن يستطيع الأمر والنهى والالاحاح ، كأنه قد أخذ على نفسه عهدا بعدم رفع صوته أو استعمال صيغة الأمر أبدا ، فمن الصعب عليه أن يقول « اعطنى ! » أو « احضر ! » ، ومثلا عندما يريد أن يأكل أو يتناول الشاى فانه يتنحنج مترددا ثم يقول للطباخة : « ماذا عن غذائى ؟ » أو « ماذا عن الشاى ؟ » . لقد كان مستحيلا عليه أن يأمر ملاحظ المستشفى بالكف عن السرقة أو أن يلغى هذه الوظيفة الطفيلية الغير ضرورية للمستشفى .

وعندما يخدع أحدهم أندريه يفيمتش أو يتملقه أو يعرض عليه حسابات ملفقة فان وجهه يحمر كسرطان

البحر ويدخله شعور بالذنب ، ومع ذلك يعتمد هذه الحسابات ، وعندما يشكو له المرضى من الجوع ومن قسوة الأمراض فإنه يخجل ويتمتم كالمذنب قائلا :

— حسنا . حسنا . سأنظر فى الأمر . . لا بد أن هناك سوء تفاهم . . .

وفى أول الأمر كان أندريه يفيتمتش يعمل بجد ، فقد كان يستقبل المرضى من الصباح حتى الغداء ، ويجرى الجراحات ، بل وكان يولد النسوة . وكانت النساء تقول عنه أنه دقيق الملاحظة ويحدد المرض بسهولة خصوصا أمراض النساء والأطفال ، ولكن بمرور الوقت مل العمل لرتابته وعدم جدواه الواضحة . اذا استقبل اليوم ثلاثين مريضا غدا يحضر خمس وثلاثون وبعد غد أربعون وهكذا يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، ومع ذلك لا يقل معدل الوفاة ، ويواصل المرضى الحضور ، ومن المستحيل موضوعيا أن تقدم مساعدة جدية لأربعين مريضا فى فترة ما بين الصباح والظهر ، اذن يجد الانسان نفسه منغمسا فى ممارسة الخداع ، فان استقبال مائة وعشرين ألفا من المرضى فى العام يعنى ببساطة استئغال مائة وعشرين ألف انسان فى العام ، ومن المستحيل أن تضع المرضى بأمراض خطيرة فى العنابر وأن تطبق عليهم قواعد العلم ذلك لأن القواعد موجودة والعلم لا وجود له . أما اذا تركت التناول الفلسفى للموضوع وأردت أن تتبع القواعد شكليا فانه لابد من توفير النظافة والتهوية لا القذارة ، ولابد من الغذاء

الصحي لا الشوربة المظهوة من الكرب الحامض العفن ،  
ولا بد من وجود مساعدين جيدين لا لصوص .

ثم لماذا نمنع الناس من أن يموتوا اذا كان الموت هو  
النهاية الطبيعية للانسان ؟ وما الفائدة من مد حياة تاجر  
أو موظف خمس أو عشر سنوات ؟ واذا اعتبرنا أن هدف  
الدواء هو تخفيف حدة الألم يقفز الى ذهن السؤال  
التالى : ولم نخففها ؟ أولا : يقال أن الآلام تساعد الانسان  
على بلوغ الكمال ، وثانيا : اذا تعلمت الانسانية فعلا أن  
تخفف آلامها بالحبوب والنقط فإنها ستهمل الدين  
والفلسفة تماما ، لأنها الآن تجد فيهما بلسما لكل  
المصائب ، بل وتجد فيهما السعادة . ان بوشكين (١) قبل  
وفاته قاسى آلاما فظيعة ، والمسكين هاينى (٢) ظل مشلولاً  
لسنوات طويلة ، فلماذا لا يقاسى مثلاً أندريه يفيمتش أو  
ماترينا سافيشنا من المرض اذا كانت حياتهم بدون هذه  
الآلام ستصبح فارغة لا مضمون لها وأشبه بحياة  
الاميبيا ؟

تحت وطأة هذه الأفكار أصيب أندريه يفيمتش  
باللامبالاة ، وقل ذهابه الى المستشفى .

---

(١) بوشكين : أشهر شعراء الروس ، عاش فى أوائل القرن

التاسع عشر - المترجم .

(٢) هنزى هاينى : - شاعر ألمانى (١٧٩٧ - ١٨٥٦) - المترجم

ويمر يومه كالآتى : يستيقظ عادة فى حوالى الثامنة ، يرتدى ملابسه ويشرب الشاى ثم يجلس الى مكتبه أو يذهب الى المستشفى . فى المستشفى يجلس مرضى العيادة الخارجية فى الممر الضيق المظلم فى انتظار بدء الكشف ، وفى هذا الممر يسرع العاملون فى المستشفى تدق أحذيتهم أرضية المشى المصنوعة من الطوب . ويمر المرضى النحاف مرتدين معاطف المستشفى ، وعلى النقالات جثث الموتى والماعون المليء بالنفايات ، ويبكى الأطفال ، وتشعر بتيار الهواء البارد ، ويعلم أندريه يقيمتش أن هذا الوضع مؤلم بالنسبة لمرضى الحميات والسل . ولكن ما العمل ؟ وفى غرفة الاستقبال يقابله التمرجى سرجيى سرجيتش ، وهو رجل صغير سمين ، حركاته حاملة ، ذو وجه حليق نظيف ممتلىء ، يرتدى حلة جديدة واسعة ، وهو أكثر شبها بالسنتاتور منه بالتمرجى ، وله فى المدينة عملاء كثيرون ، ويرتدى رباط عنق أبيض ويعتبر نفسه أكثر علما من الطبيب الذى لا عملاء له . وفى غرفة الاستقبال نجد فى الركن ايقونة فى اطار جميل وبجوارها شمعدان ثقيل محفوظ فى جراب ، وعلى الجدران صور



للكاردينالات وصورة لدير سفيتاجورسك وبجوارها فروع  
زهر مجدولة • وسرجيى سرجيتش رجل متدين يذكر الله  
دائما ، وهو الذى أمر بوضع الايقونة كما يأمر كل يوم  
أحد أن يقرأ أحد المرضى بعض آيات الانجيل ، وبعد  
القراءة يبخر سرجيى سرجيتش بنفسه كل العنابر •

المرضى كثيرون والوقت ضيق لذا يتكون الكشف  
من أسئلة قصيرة سريعة ثم تصرف بعض الأدوية كمرهم  
الاكتيول أو المزيج ، وأثناء ذلك يجلس أندريه يفيمتش  
واضعا يده على خده غارقا فى تأملاته ويلقى الأسئلة بطريقة  
ميكانيكية • ويجلس الى جواره سرجيى سرجيتش يفرك  
يديه وأحيانا يتدخل بقوله :

- اننا نقاسى المرض والحاجة لأننا لا نصلى للرب  
كما يجب • طبعاً !

وفى فترة الاستقبال لا يقوم أندريه يفيمتش بأى  
جراحات ، لقد فقد التعود عليها من مدة طويلة وأصبح  
منظر الدم يثيره • وعندما يحاول فتح فم طفل لينظر فى  
حلقه ويبكى الطفل مدافعا عن نفسه بقبضتيه الصغيرتين  
يشعر الطبيب بدوار تحت تأثير هذا الضجيج وتدمع عيناه  
فيسرع فى كتابة الروشتة ويلوح بيده لتأخذ المرأة طفلها  
وتخرج سريعا •

وسريعا ما يمل خجل المرضى وعجزهم عن شرح  
حالتهم ، وتضجره صحة التمورجى ، ويمل الصور المعلقة

على الجدران ، ويميل أسئلته التي يكررها دائما منذ أكثر من تشرين عاما ، لذا فبعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى يغادر المستشفى ، أما باقى المرضى فيستقبلهم التمورجى .

وتدور في رأسه فكرة تفرحه ، انه حمدا لله لا يوجد عنده من زمن عملاء خصوصيون ولن يقلقه أحد ، وعندما يصل أندريه يفيمتش الى مسكنه يتوجه سريعا الى غرفة المكتب ثم يبدأ فى القراءة ، وهو يقرأ كثيرا جدا ودائما بتلذذ واضح ، وينفق نصف مرتبه الشهري على شراء الكتب ، وتتكوم الكتب والمجلات المقروءة فى ثلاث غرف من غرف مسكنه الست . وهو يحب مؤلفات التاريخ والفلسفة ، أما بالنسبة للطب فهو مشترك فى مجلة « الطبيب » فقط ، وكان يبدأ تصفحها دائما من الصفحات الأخيرة . ويقرأ كل مرة عدة ساعات متواصلة دون تعب أو اجهاد ، ولم يكن يقرأ بسرعة واندفاع كما كان يفعل ايفان ديمترتش ، بل كان يقرأ ببطء ، وتعمق ، وكثيرا ما كان يتوقف عند تلك السطور التي تروقه أو التي لا يفهمها . وبجوار الكتاب يوجد دائما دورق مملوء بالفودكا وخيارة مملحة أو تفاحة مسلوقة موضوعة على مفرش المكتب رأسا بلا طبق ، وكل نصف ساعة ودون أن يرفع عينيه عن الكتاب يصب لنفسه كأسا من الفودكا ويحتسيه ثم يتحسس بأصابعه الخيارة ليقضم منها جزءا . وفى الثالثة بعد الظهر يتقدم بحذر نحو المطبخ ويسعل ثم يقول :

– داريوشا ٠٠ ماذا عن غدائي ٠٠

وبعد أن يتناول الغداء السييء الطهى الى حد كبير ،  
يبدأ أندريه يفيمتش فى السير فى الغرفات عاقدا يديه  
على صدره ويفكر ، وتدق الساعة الرابعة ثم الخامسة وهو  
لا يزال يسير ويفكر ، وأحيانا يسمع صرير باب المطبخ  
ويظهر وجه داريوشا الأحمر الناعس وتساءله باهتمام :

– أندريه يفيمتش ٠٠ ألم يحن ميعاد البيرة ؟

– لا ٠٠ لم يحن الوقت ٠٠ سأنتظر ٠٠ سأنتظر ٠٠

وعند المساء ، عادة يحضر مدير مكتب البريد ميخائيل  
أفريانتش ، وهو الانسان الوحيد فى كل المدينة الذى  
يستطيع أندريه يفيمتش أن يتحمله ، ولقد كان ميخائيل  
أفريانتش فى الماضى اقطاعيا غنيا جدا ، كما كان ضابطا  
فى سلاح الفرسان ، ثم أفلس واضطرته الحاجة الى العمل  
فى البريد عن كبر ، وهو صحيح الجسم نشيط ذو سؤالف  
بيضاء نافشة ، وطباعه تدل على تربية نبيلة ، وله صوت  
جهورى لطيف ، وهو طيب حساس ولكنه سريع الغضب ،  
وفى مكتب البريد عندما يبدى أحد من الجمهور اعتراضه  
أو لا يوافق على شيء ما أو حتى يناقش الموظف يحمر وجه  
ميخائيل أفريانتش وينتفض كل جسده ، ثم يصرخ بصوت  
كالرعد « اخرس ! » لذا صار لمكتب البريد سمعة المكان  
الذى يخاف الناس الذهاب اليه . ويحترم ميخائيل  
أفريانتش أندريه يفيمتش ويحبه لثقافته ونبل روحه

ولكنه يتكبر على بقية أهل المدينة كما لو كانوا من  
مرءوسيه .

وعندما يدخل عند أندريه يفيمتش يبادء قائلا :  
- ها أنا ذا ! سعدت مساء يا عزيزى ! لابد ان  
زياراتى قد أضجرتك ، هيه !  
فيجيب الطبيب :

- بالعكس . . انى لمسرور . . أنا دائما أسر لرؤيتك .  
ثم يجلس الصديقان على الأريكة فى غرفة المكتب  
فترة صامتين يدخان . . وينادى أندريه يفيمتش :  
- داريوشكا . . ماذا عن البيرة !

يشربان الزجاجاة الأولى صامتين ، الطبيب غارق فى  
أفكاره ، وميخائيل أفريانتش مرح حيوى المظهر كأنه  
يستعد لقول شىء ما شيق جدا ، ودائما يبدأ الطبيب  
الحديث ، فيقول ببطء ، وصوت منخفض ، دون أن ينظر  
فى عينى محدثه ( فهو لا ينظر أبدا فى العينين ) :

- يا له من أمر محزن ، محزن جدا يا ميخائيل  
أفريانتش المحترم ، انه لا يوجد بتاتا فى مدينتنا أحد  
يجيد ويحب الحوار الشيق الذكى . اننا بذلك نفقد  
الكثير ، حتى المثقفون لا يسمون على التهريج ، انى أوكد  
لك أن مستوى نضجهم الفكرى لا يرتفع عن مستوى  
الطبقات السفلى .

- صحيح تماما . انى أوافقك .

فيواصل الطبيب بصوت خفيض متمهلا :

— انك تعلم بنفسك ان كل شيء فى هذا العالم منحل تافه الا النتاج الروحي السامى للعقل الانسانى .  
فالعقل يضع حدا فاصلا بين الحيوان والانسان بل ويرمز الى ألوهية الأخير ، ويعتبر الى حد ما بديلا للحياة الأبدية التى لا نتمتع بها . ونتيجة لذلك يكون العقل هو المصدر الوحيد المتاح للتمتع بالحياة ، وحولنا لا وجود للعقل ، لا نراه ولا نسمع عنه شيئا — ولذلك نحن محرومون من هذه المتعة ، صحيح نحن نملك الكتب ولكنها لا تغنى عن الحوار ، واذا سمحت لى أن أستعير تشبيها ليس دقيقا تماما فانى أقول ان الكتب هى النوتة الموسيقية أما الحوار فهو الغناء .

— هذا صحيح تماما .

ويخيم الصمت ، وتخرج داريوشا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن غبى ، تضع يدها على خدها ، وتقف بالباب لتنصت الى الحديث .

ويتنهد ميخائيل أفريانتش قائلا :

— ايه . . انك تطلب الكثير من عقل هذا الجيل !

ثم يبدأ فى الكلام عن الحياة فى الماضى وكيف كانت هذه الحياة شيقة ومرحة ، وكيف كان المثقفون فى روسيا أذكياء ، يقدسون مفاهيم الشرف والصدقة ، ويقرضون النقود بلا وصولات ، ويعتبرون أن التخلي عن مساعدة

الرفيق المحتاج أمرا مخجلا • وأية رحلات ومغامرات  
ومشادات ! وأى رفاق ! وأى نساء ! والقوقاز ، يا لها من  
منطقة عجيبة ، وقال :

– لقد عرفت هناك امرأة عجيبة – زوجة أحد زملائي  
الضباط – كانت تضع على كتفيها المعطف الميرى وتخرج  
ليلا الى الجبال ، وحدها بلا مرافق ، يقال أنها كانت تعشق  
أحد شيوخ القبائل هناك •

وتتنهد داريوشكا متممة :

– يا قيصة السماوات ! يا أمنا ...

ويستمر ميخائيل أفريانتش :

– كم شربنا وكم أكلنا وكم تناقشنا ! كم كنا  
ليبيراليين !

ويسمع أندريه يفيمتش الى الحديث ولا يصغي اليه  
لأنه يفكر فى شيء ما ، ويشرب البيرة ببطء ، بجرعات  
صغيرة ، ثم يقاطع ميخائيل أفريانتش فجأة بقوله :

– كثيرا ما أرى فى الحلم أننى فى حوار مع ناس  
أذكاء • لقد أعطانى والدى تعليما ممتازا ، ولكنه – متأثرا  
بأفكار الستينات – اضطررنى لدخول كلية الطب ، ويخيل  
الى أننى لو لم أمتثل بأمره لكنت الآن فى قلب الحياة  
الفكرية ، بالطبع ليس العقل شيئا أبديا بل انه وقتى  
ولكننى أقدمه • ان الحياة مصيدة غبية ، عندما يصل  
الانسان المفكر الى الرجولة والمعرفة الناضجة فانه يشعر

كأنه وقع فى مصيدة لا مخرج منها ، فعلا يجد الانسان نفسه - بدون ارادته - مشدودا بظروف وصدف معينة من العدم الى الحياة . . لآى هدف ؟ يريد الانسان أن يعرف معنى وهدف وجوده ولكن ما من مجيب ، واذا أجابوا فبخلط غير مفهوم . انه يطرق الأبواب ولكنها لا تنفتح ، ثم يأتى الموت أيضا دون ارادته . وفى السجن ترتفع روح المسجونين المعنوية عندما يتجمعون معا وهكذا فى الحياة لا يحس المرء بهذه المصيدة اذا كان من ذلك النوع من الناس الذين يحبون أن يشغلوا وقتهم فى تبادل الأفكار الحرة الأبية ، وهذا ما أعنيه بقولى ان العقل هو اللذة التى لا بديل لها .

- هذا صحيح تماما .

ويواصل أندريه يفيمتش - دون أن ينظر فى العينين - حديثه الهادى الذى تتخلله لحظات الصمت ، عن الناس الأذكياء والحوار معهم ، أما ميخائيل أفريانتش فينصت بانتباه ويوافق بجملته : « صحيح تماما » .

ويسأل رجل البريد فجأة :

- ألا تؤمن بأبدية الروح ؟

- لا يا حضرة المحترم ميخائيل أفريانتش ولا أجد

أسبابا تدعونى لهذا الايمان .

- حقيقة أنا أيضا أشك فى ذلك ، ولكنى أشعر كما لو أنى لن أموت أبدا . . وأحيانا أقول لنفسى : « ايه أيها العجوز ها قد حان أجلك » ولكنى أشعر بصوت

خافت - من أعماق نفسى - يقول : « لا لن تموت » !

وبعد التاسعة بقليل ينهض ميخائيل أفريانتش .  
وفى المدخل أثناء ارتدائه المعطف الثقيل يتنهد قائلاً :

- يا للمقادير التى حكمت علينا بالنفى الى هذا  
المكان النائى . . وأفزع ما فى الأمر هو اننا سنموت هنا .  
ايه !

- ٧ -

وبعد ما يرافق أندريه يفيمتش صاحبه الى الباب ،  
يعود الى مكتبه ليوصل القراءة ولا يعكر أى صوت صفو  
المساء أو الليل ويكاد الزمن أن يتوقف ويسكن مع الطبيب  
المنكب على كتابه وكأنه لا يوجد شئ فى العالم كله الا هذا  
الكتاب وذلك المصباح ذو الزجاج الزرقاء . وبمرور  
الوقت تختفى الفضاظة والجلافة من وجه الطبيب وتحل  
محلها ابتسامة رضا وفرح أمام خلجات العقل الانسانى ،  
وتدور فى رأسه مختلف الأفكار ، أوه لم لا يتمتع الانسان  
بالحياة الأبدية ؟ لم وجدت مراكز الاحساس والتفكير فى  
مخ الانسان ولم وجدت حاسة النظر والقدرة على التعبير ،  
لم زجد الشعور ، لم وجدت العبقرية اذا كان مقدرا لكل  
هذا فى نهاية المطاف أن يدفن فى الأرض ثم يبرد مع



القشرة الأرضية ويدور للملايين السنين مع الكرة الأرضية حول الشمس بلا معنى أو هدف ؟ فلا داعى لان يؤتى بالانسان من العدم ليبرد ثم ليدور مع الأرض ، هذا الانسان الذى يتمتع بعقل سام شبه الهى ، يؤتى به ليحول الى طين ، ان ذلك أشبه بنكتة .

المادة لا تفنى ولا تستحدث . لكن من الجبن أن يرضى الانسان بهذه الأبدية الحقيرة . ان هذه العمليات الطبيعية العفوية لأقل مرتبة حتى من الغباء الانسانى لان الغباء يحتوى على معرفة و ارادة أما تلك العمليات فلا تحتوى على شىء . ان الجبان فقط - الذى يفوق خوفه من الموت اعتزازه بنفسه - هو الذى يستطيع أن يهدىء من روع نفسه بان جسده سيظل يحيا فى نبتة أو حجر أو ضفدع . . ان الانسان اذا اعتبر انه أبدى لمجرد ان جسده كمادة لا يفنى مثله كمثل من يتوقع مستقبلا رائعا لصندوق كمان جيد بعد أن يتحطم هذا الكمان .

وكلما تدق الساعة يستريح أندريه يفيمتش بجسده على ظهر الكرسي ويغمض عينيه ليفكر قليلا ، ودون قصد وتحت تأثير الأفكار الجيدة التى قرأها يلقي نظرة على ماضيه وحاضره ، الماضى مقرف لا داعى لتذكره والحاضر كالماضى . فهو يعلم انه الآن وبينما تدور أفكاره مع الكرة الأرضية - التى بردت قشرتها - حول الشمس ، يوجد فى المستشفى الكبير بجوار مسكنه ناس يتعذبون من المرض والقذارة ، ومن المحتمل أن أحدهم فى هذه اللحظة

لا يستطيع النوم بل يناضل ضد الحشرات ، أو أن أحدهم يتأوه متألماً من الرباط الضيق حول جرحه ، أو أن بعض المرضى يلعبون الورق ويحتسون الفودكا مع الممرضات .  
فى العام الواحد يخدع مائة وعشرون ألف انسان . ان المستشفى كما كانت منذ عشرين عاما لازالت مليئة بالسرققات والمؤامرات الحقيرة والاشاعات والخواطر والوساطة والخداع الفظ ، انها لازالت مؤسسة لا أخلاقية ومضرة بالصحة العامة . انه يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى فى العنبر رقم ٦ وأن موسيكا يتجول فى المدينة يومياً ليتسول .

وكذلك فانه يعلم جيداً أن علم الطب قد تطور تطوراً مذهلاً فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة ، لقد كان يظن ابان دراسته فى الجامعة أن الطب سيئول الى نفس النهاية التى منى بها علم السحر والميتافيزيقا ، أما الآن فان نفسه تمتلئ بالعجب والفرح عندما يقرأ ليلاً عن تطور الطب ، فعلاً يا له من تطور غير متوقع ، يا لها من ثورة ! بفضل مضادات التلوث أصبح من الممكن اجراء عمليات صعبة لدرجة أن بيراجوف (١) العظيم كان يعتبرها مستحيلة من حيث المبدأ ، لقد أصبح فى استطاعة الأطباء المتوسطى الخبرة أن يقوموا بعملية بتر السباق عند المفصل بنسبة نجاح تسعة وتسعين فى المائة ، أما مرض تحجر الأنسجة

---

(١) بيراجوف عالم طب روسى مشهور عاش فى القرن التاسع

عشر . (الترجم)

فقد أصبح من الأشياء البسيطة لدرجة أن أحدا لا يكلف نفسه عناء الكتابة عنه فى المجالات العلمية ، وصار من الممكن شفاء مرض الزهري شفاء تاما . ونظرية الوراثة ، ونظرية التنويم المغناطيسى ، واكتشافات باستير وكوخ ، وعلم التعقيم والتطهير ، والطب النفسى ، وطرق تصنيف الأمراض والكشف عنها وعلاجها . يا للتطور المذهل ! فمثلا ، لا يعالج المجانين الآن بصب الماء البارد على رؤوسهم أو بالبأسهم « القميص » ، بل يضعونهم فى مصحات محترمة ويسمحون لهم بالاشتراك فى الحفلات ومشاهدة المسرحيات الخاصة ، ويعلم أندريه يفيمتش جيدا أن شيئا وضيعا كالعنبر رقم ٦ لا يمكن أن يتواجد فى ظل آراء ووجهات نظر أواخر القرن التاسع عشر الا فى مكان ناء على بعد مائتى فرسخ من خط السكة الحديدية ، فى تلك المدينة التى يعتقد عمدتها وأهلها أنصاف المتعلمين أن الطبيب كاهن لا بد من الثقة به ثقة عمياء حتى لو صب فى حلق المريض قصديرا مصهورا ، أما لو كان ذلك موجودا فى أى مكان آخر لحطم الناس والصحافة حصن الباستيل الصغير هذا .

ويفتح أندريه يفيمتش عينيه ويتساءل : « وما بعد ذلك ؟ وما النتيجة ؟ اكتشفت مضادات التلوث ، وجاء باستير وكوخ باختراعاتهما ، ولكن جوهر الموضوع لم يتغير ، نسبة المرض ومعدل الوفاة لم يتغيرا ، صحيح يسمح للمجانين بالاشتراك فى الحفلات ومشاهدة المسرحيات

ولكنهم لا زالوا محبوسين فى عنابرهم اذن فكل هذا  
تخريف ، وفى الواقع لا فرق بين أعظم مستشفى فى فينا  
وبين مستشفى .

ولكن يداخله شعور بالأسى ، واحساس يشبه الحسد  
مما يجعله قلقا . يبدو ان ذلك نتيجة للاجهاد . ويلقى  
برأسه الثقل على الكتاب ويضع يده تحت خده ويواصل  
التفكير « اننى فى وظيفتى هذه أقوم بعمل مضر ، وأحصل  
على راتبى ممن أخدمهم اذن فأنا غير شريف ، ولكن أنا فى  
واقع الأمر لا شئ ، أنا فقط جزئ من الفظاظه الاجتماعيه  
الحتمية ، فان كل الموظفين يقومون بأعمال غير مفيدة  
ويحصلون على رواتبهم دون وجه حق . . . اذن أنا لست  
مذنبا فى اننى غير شريف ، بل الذنب ذنب العصر . . .  
فلو ولدت بعد مائتى عام من الآن لكنت انسانا آخر » .

وعندما تدق الساعة الثالثة بعد منتصف الليل  
يطفىء المصباح ويتوجه لغرفة النوم وليس به أى رغبة فى  
النوم .

- ٨ -

مند عامين قرر مجلس المحافظة فى نوبة كرم أن  
يساعد المدينة فى تدعيم الخدمات الطبية فقرر منحها

ثلاثمائة روبل سنويا وذلك حين تشييد مستشفى جديد تابع للمحافظة ، فعين طبيب جديد لمساعدة أندريه يفيمتش هو يفجينى فيودرتش خوبوتوف . وهو شاب لم يبلغ الثلاثين بعد ، طويل ، أسمر ، ذو وجه عريض وعينين صغيرتين ، جاء الى المدينة مفلسا ، يحمل حقيبة ضخمة ، وبرفقته امرأة شابة غير جميلة تحمل طفلا رضيعا ، وقال انها طاهيته . ويضع يفجينى فيودرتش كابا على رأسه وينعل حذاء برقبة ، وفى الشتاء يرتدى معطفا قصيرا . وسريعا ما تفاهم مع كبير الممرضين سرجى سرجيتش ومع أمير المخزن ، وأطلق على بقية الموظفين - لسبب غير مفهوم - اسم « الارستقراطيون » وصار يتجنبهم . وكان مسكنه يحتوى على كتاب واحد فقط هو « أحدث روشتات مصحة فينا عن سنة ١٨٨١ » وكان يحمل معه دائما هذا الكتاب فى زياراته للمرضى ، ومساء كان يلعب البلياردو فى النادى ولم يكن يلعب الورق ، وكان يحب أن يستعمل فى حديثه تعبيرات ملتوية غريبة .

كان يعمل يومين فى الأسبوع حيث يمر على العنابر ويستقبل المرضى فى العيادة الخارجية ويضيق ذرعا من عدم وجود مضادات التلوث وعدم وجود كاسات الهواء ولكنه لا يغير شيئا من النظام الحالى حتى لا يخرج أندريه يفيمتش ، وهو يعتبر أن زميله خبيث ويشك فى أن لديه دخلا كبيرا ويحسده سرا . ولا يوجد عنده مانع فى أن يحل محله .

فى احدى أمسيات الربيع فى أواخر مارس ، بعد  
ذوبان الجليد ، والعصافير تزقزق فى حديقة المستشفى ،  
خرج أندريه يفيمتش ليوصل صاحبه رجل البريد ، وفى  
هذه اللحظة كان موسيكا عائدا من رحلته اليومية عارى  
الرأس منتعلا حذاء المطر على قدميه العاريتين ، وفى يده  
مخللة تحتوى على ما شحذه ، واستوقف الطبيب وقال له  
منتفضا من البرد مبتسما :

- اعطنى كوبىكا !

فأعطاه أندريه يفيمتش - الذى لا يستطيع أن يرفض  
أبدا - قطعة من ذات العشرة كوبيكات .

ونظر الطبيب الى ساقى موسيكا العجفاوين العاريتين  
وفكر فى نفسه « هذا ليس بحسن ، فالجو بارد رطب » .

وبشعور يشبه العطف والقرف تبعه الطبيب الى  
المبنى الصغير ناظرا الى صلعته تازة ، والى سيقانه تارة  
أخرى ، ولما رأى نيكييتا الطبيب داخلا نهض سريعا من على  
كومة المخلفات ، وبادره الطبيب قائلا بلين :

- نعمت مساء يا نيكييتا ، ماذا لو صرفنا لهذا  
المريض حذاء جديدا ، والا سيصاب بنزلة برد .

— أمر سيادتكم ، سأبلغ الأمر الى أمين المخزن .  
— لو سمحت ، سله باسمي ، قل له اني أرجوه .  
وفى هذه الأثناء كان باب العنبر مفتوحا وكان ايفان  
ديمترتش راقدا على سريره مرتكزا على كوعيه ، رافعا  
رأسه يتصنت الى الصوت الغريب بقلق ، وفجأة تعرف  
على الطبيب ، فانتفض كل جسده وجحظت عيناه ، وقفز  
الى منتصف العنبر وصرخ :

— جاء الدكتور .

ثم قهقه وأضاف :

— أخيرا ! أهنيكم أيها السادة ، ان الدكتور  
سيشرفنا بزيارته .. أيها الثعبان الملعون !  
وفى ثورة غضب جنوني صار يضرب الأرض بقدميه  
صارخا :

— لا بد من قتل هذا الثعبان ! لا ، ان قتله قليل !  
لا بد من اغراقه فى مكان مهجور !

فلما سمع أندريه يفيمتش هذا الصراخ أطل برأسه  
داخل العنبر وسأل بلين :

— بأى جرم ؟

فصرخ ايفان ديمترتش :

— بأى جرم ؟!

وتقدم الى الطبيب بشكل مهدد ، ململما معطفه

بأصابع مرتجفة ، متخذاً بفمه وضع من يرغب فى البصق  
وصرخ :

— بأى جرم ؟ يا لص ! يا مخادع ! يا قاتل !

فأجاب أندريه يفيمتش مبتسماً كالْمُذنب :

— أرجوك • هدىء من روعك • اننى أؤكد لك انى  
لم أسرق أبداً ، كما يبدو انك تضخم جداً فى بقية التهم •  
أراك غاضباً على • أرجو أن تقول لى بهدوء وبرود • لماذا  
تغضب منى ؟

— ولماذا تحبسوننى هنا ؟

— لانك مريض •

— أجل • أنا مريض ، ولكن هناك عشرات بل مئات  
من المجانين يتجولون طلقاء ، ذلك لأن جهلكم لا يجعلكم  
تستطيعون تمييزهم عن الاصحاء • فلماذا اسجن أنا وهؤلاء  
المساكين نيابة عن كل المجانين ، مثل كباشى الفداء ؟ انت  
وكبير الممرضين وأمين المخزن وكل انذال المستشفى من  
وجهة النظر الاخلاقية أقل من أى واحد منا بمراحل ،  
اذن لماذا نسجن نحن ولا تسجنون انتم ؟ أين المنطق ؟

— لا المقارنة الاخلاقية ولا المنطق يلعبان أى دور فى  
هذا الموضوع • بل ان كل شىء وليد الصدفة • فمن  
يمسك به يسجن ومن لم يمسك به يعيش حراً طليقاً •  
هذا هو كل شىء فلا علاقة بين كونى طبيباً وكونك مريضاً  
وبين الاخلاقيات والمنطق ولكن العملية كلها صدفة بحتة •



فأجاب ايفان ديمترتش بغضب :

– أنا لا أفهم هذا الخلط •

وجلس على سريره •

واستغل موسيكا فرصة ان نيكيتا خجل ان يفتشه  
في حضور الطبيب فرص على السرير كسرات الخبز  
وقصاصات الورق وقطع العظم التي كانت فى مخلاته ،  
وأخذ يتمتم بسرعة وتنغيم بالعبرية • كان يتصور انه فتح  
حانوتا •

وقال ايفان ديمترتش :

– اخرجنى من هنا • أرجوك •

ثم تحشرج صوته • فقال الطبيب :

– لا أستطيع •

– لكن لماذا ؟ لماذا ؟

– لأنى لا أملك هذا الحق ، فلتفكر بنفسك • أى

فائدة يمكن أن تجنيها من ذلك ؟

انك اذا خرجت سيمسك بك الناس أو رجال

الشرطة ويعيدونك •

– أجل • أجل هذا صحيح •

ومسح جبينه بيده وأضاف :

– هذا فظيع ! ولكن ما العمل ؟ ما العمل ؟

أعجب اندريه يفيمتش بصوت ايفان ديمترتش

وبوجهه الذكى ، فأراد أن يطيب خاطره وأن يهدىء من روعه فجلس الى جواره على السرير وقال :

- أنت تتساءل : ما العمل ؟ ان أفضل شىء فى وضعك هو أن تهرب من هنا ، ولكن للأسف دون فائدة ، فسيمسكون بك • انك لا تستطيع أن تهزم المجتمع عندما يحمى نفسه من المجرمين والمجانين وكل من يسببون له المشاكل ، وبذلك لا يبقى لك الا حل واحد هو أن تقنع نفسك بأن وجودك هنا ضرورى •

- ان أحدا لا يحتاج الى هذه الضرورة •

- بما أن السجون ومستشفيات المجانين موجودة فلا بد لأحد ما أن يشغلها ، ان لم تكن أنت فأنا ، وان لم أكن أنا فغيرى • فلننتظر الى أن يجرى الوقت الذى لن تكون فيه سجون ولا مستشفيات مجانين وعندئذ لن يكون هناك قضبان ولا « قمصان » مجانين ، وان عاجلا أو آجلا سيجىء هذا الوقت •

فابتسم ايفان ديمترتش وقال ناظرا شزرا :

- أتهزأ ؟ لا دخل لهؤلاء السادة أمثالك وأمثال نيكييتا بهذا المستقبل ، ولكنى أؤكد لك يا سيدى المحترم أن المستقبل السعيد سيجىء ، من الجائز أن تعبيرى غير سام ، ولك أن تضحك اذا شئت ولكن الفجر الجديد سيبزغ ، وسيرتفع علم الحق ، وستكون الاعياد فى كل مكان ، لن أعيش لأرى هذا الزمن ولكن الأحفاد سيرونه ،

انى أحييهم وأفرح لهم بكل وجدانى ! الى الأمام ! وليساعدكم  
الله يا أصدقائى !

ونهض ايفان ديمترتش ولمعت عيناه ومد يديه الى  
النافذة وواصل بفرح طاغ :

- انى أبارككم من وراء هذه القضبان ! فليعش  
الصدق ! انى فرح !

وخيل لاندريه يفيمتش أن حركات ايفان ديمترتش  
مسرحية ، وفى نفس الوقت أعجب بها ، ورد عليه  
قائلا :

- انى لا أجد أى سبب للفرح ، صحيح سيجىء  
الوقت الذى تختفى فيه السجون ومستشفيات المجانين ،  
وسيرتفع - كما قلت - علم الحق والصدق ، ولكن مضمون  
الأشياء لن يتغير وستظل قوانين الطبيعة كما هى ، والانسان  
سيظل يمرض ويهرم ويموت كما هو الحال الآن ، ومهما  
أضاءت الأنوار حياتك ففى النهاية ستوضع فى تابوت  
ويقذف بك فى حفرة .  
- والأبدية ؟

- ايه .. لا داعى !

- أنت لا تؤمن - أما أنا فمؤمن . لقد قيل على لسان  
أحد أبطال دوستيفسكى أو فولتير - لا أذكر - أنه لو  
لم يكن هناك اله لاخترعه الناس ، وأنا أؤمن بعمق أنه ان  
لم تكن هناك حياة أبدية فان العقل الانسانى سيخترعها  
ان عاجلا أو آجلا .

فابتسم أندريه يفيمتش معجبا وقال :

- من حسن حظك أنك تؤمن ، ان من يملك هذا  
الايمان يستطيع أن يعيش حتى لو كان مقيدا أو مصلوبا  
على جدار . هل نلت قسطا من التعليم ؟

- أجل . كنت أدرس فى الجامعة ولكن لم أكمل  
دراستى بها .

- انك انسان مفكر ومتمعن ، وأيا كانت الظروف  
فانك تستطيع أن تجد الهدوء داخل ذاتك ، ان التفكير  
الحر العميق والتفهم الدقيق لاحداث العالم الغبية لأسمى  
متعة للانسان . وانت تستطيع الحصول عليها حتى اذا  
كنت مقيدا وراء ثلاثة جدران . لقد أمضى ديوجينوس (١)  
حياته فى برميل ولكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم .

فقال ايفان ديمترتش غاضبا :

- لقد كان ديوجينوس هذا حمارا .

ثم حنق فجأة ونهض من على سريره وأضاف :

- لماذا تكلمنى عن ديوجينوس وعن تمعن غير ذى  
معنى ؟ انى أحب الحياة ، أحبها بعمق ! صحيح اننى أقاسى  
من تصور اننى مطاردا وأحس دائما بخوف مضم ، ولكننى

---

(١) ديوجينوس - فيلسوف يونانى (٤٠٤ - ٣٢٣ ق.م) ، تجنب  
العالم وقضى الجزء الاكبر من حياته فى برميل . ويقال انه كان يحمل  
مشعلا بالنهار ليجت عن انسان يستحق ماتعنيه هذه الكلمة - المذموم

أشعر أحيانا بعطش قوى للحياة وعندئذ أخاف من أن أجن  
ان في رغبة فظيعة في الحياة ، رغبة فظيعة !  
وبدأ السير جيئة وذهابا بطول العنبر وقال مخففا  
صوته :

- أحيانا أرى الاشباح .. فأتصور أناسا  
يجيئون الى وأسمع أصواتا وموسيقى ، ويهيأ لي أننى  
أتجول في الغابات أو على شاطئ البحر ، وعندئذ أتوق بكل  
وجدانى الى مشاكل الحياة ومشاكلها .. اخبرنى من  
فضلك .. ماذا هناك من جديد ؟ ماذا هناك ؟

- هل تسأل عن المدينة أو عموما ؟

- أولا حدثنى عن المدينة ثم عن كل شيء .

- حسن ، فى المدينة ضجر لا نهائى . لا تستطيع  
أن تجد انسانا يمكنك التحدث معه .. لا جديد ،  
آه من زمن قريب جاء طبيب جديد . خوبوتوف .

- أجل اعلم ، ماذا عنه ؟ قفل ؟

- أجل ، انسان غير مثقف . شيء غريب .. ان  
الحركة الثقافية والفكرية فى مدننا الكبرى تتطور ،  
ولكنهم دائما يرسلون الينا أناسا قلتهم أفضل . يا لها  
من مدينة بائسة !

- أجل مدينة بائسة !

وتنهذ ايفان ديمترتش وضحك ثم سأل :

- وعموما . كيف الحال ؟ هل هناك جديد في الصحف والمجلات ؟

كان الظلام قد خيم في العنبر ، نهض الطبيب وصار يتحدث واقفا عما يكتب في الخارج ، وعن التطورات والاتجاهات الفكرية في روسيا . وكان ايفان ديمترتش يستمع بانتباه ويستفسر من حين لآخر ، وفجأة أمسك رأسه بكلتا يديه كمن تذكر شيئا فظيعا . ورقد على سريريه معطيا ظهره للطبيب الذي سأله :

- ماذا حدث ؟

فرد عليه ايفان ديمترتش بفضافة :

- لن أقول لك كلمة أخرى ! اتركني !

- ولكن لماذا ؟

- قلت لك اتركني ! يا للشيطان !

فهز أندريه يفيمتش كتفه متعجبا وخرج ، وفي المدخل قال :

- ماذا لو نظف المكان يا نيكيتا . . فالرائحة ثقيلة الى حد فظيع !

- أوامر سيادتكم !

وأخذ الطبيب يفكر متجها الى مسكنه « ياله من شاب لطيف ! على ما أظن انه أول من يمكن التحدث معهم ممن قابلتهم طوال مدة خدمتي هنا . انه يجيد المناقشة

والحوار ، كما انه يهتم بما يجدر الاهتمام به » .  
وأخذ يفكر فى ايفان ديمترتش طوال فترة القراءة  
حتى توجه للنوم ، وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى  
تذكر انه بالأمس تعرف الى رجل ذكى شيق ، وقرر أن  
يكرر زيارته له فى أقرب فرصة .

- ١٠ -

وجد الطبيب ايفان ديمترتش راقدا تماما كما تركه  
بالأمس ، رأسه بين يديه ، ثانيا ركبتيه ، ووجهه شديد  
الشحوب ، فبادره الطبيب قائلا :

- سعدت مساء يا صديقى ، هل أنت مستيقظ ؟

فأجاب ايفان ديمترتش ووجهه على الوسادة :

- أولا : أنا لست صديقك ، ثانيا : ان مجهوداتك

ستذهب سدى ، فلن تحصل منى على كلمة واحدة .

فخجل أندريه يفيمتش وقال :

- غريبة .. لقد كنا نتحدث بالأمس فى منتهى

التفاهم وفجأة ولسبب لم أفهمه قطعت الحديث .. قد

أكون أسأت التعبير أو قد تكون احدى أفكارى لا تتوافق

مع معتقداتك ...

— أتظننى سأصدقك !

ورفع ايفان ديمترتش وجهه ونظر الى الطبيب  
مستهزئاً وقلقلًا ، وكانت عيناه محمرتين ، وأضاف :

— تستطيع أن تتجسس أو تستجوب فى مكان آخر  
أما هنا فلن تتوصل لشيء ، لقد اكتشفت سبب حضورك  
الى هنا منذ الأمس .

فابتسم الطبيب قائلاً :

— ياله من خيال ! اذن أنت تعتبرنى جاسوسا .

— أجل . . جاسوس أو طبيب مكلف باستجوابى  
كلتا الحالتين سواء .

— اعذرنى ، يا لك من انسان . . غريب !

وجلس الطبيب على مقعد بجوار السرير وهز رأسه  
معاتبا وقال :

— لنفرض انك على حق ، لنفرض انى أريد الايقاع  
بك وتسليمك للشرطة . ثم يقبضون عليك ويحاكمونك ،  
فهل المحكمة أو السجن أسوأ لك من هنا ؟ واذا سجنتم  
أو نفيت الى سيبيريا فهل هذا أسوأ من الحياة فى هذا  
المكان ؟ لا أظن . . لم اذن تخاف ؟

ويبدو ان هذه الكلمات أثرت فى ايفان ديمترتش  
فجلس بهدوء .

وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر — ذلك الوقت



الذى يسير فيه اندريه يفيمتش فى أرجاء مسكنه ومن وقت لآخر تسأله دار يوشكا « ألم يحن وقت البيرة بعد؟ » وكان الجو بالخارج هادئا صحوا • وقال الطبيب :

- لقد خرجت بعد الغداء لأتجول ، ففكرت أن أزورك الدنيا ربيع •

فسأل ايفان ديمترتش :

- أى شهر الآن ؟ مارس ؟

- نعم أواخر مارس •

- هل الأرض مازالت موحلة ؟

- ليس تماما • بل ان طرق الحديقة قد جفت •

ففرح ايفان ديمترتش عينيه كمن استيقظ من النوم وقال :

- انه لوقت مناسب لأن يركب المرء عربا ويتوجه بها الى الضواحي للنزهة ، ثم يعود الى المنزل ليجلس فى غرفة مكتب مريحة ودافئة و • • • ويتعالج عند طبيب محترم من الصداع الدائم • • • من مدة طويلة لم أذق طعم الحياة الانسانية ، ان الحياة هنا مقرفة ! غير محتملة ! يا للقرف !

كان ايفان ديمترتش مرهقا بعد انفعالات الامس لذا كان يتكلم بلا رغبة وكانت أصابعه ترتجف ويبدو أنه يعانى من صداع حاد ، وقال اندريه يفيمتش :

- لا فرق أبدا بين غرفة مكتب مريحة دافئة وبين هذا العنبر ، فالانسان يجد الهدوء والراحة داخل ذاته لا خارجها .

- كيف هذا ؟

- ان الانسان العادى هو الذى يتوقع الخير والشر من خارج ذاته أى من غرفة أو عربة أو غرفة مكتب مثلا ، أما الانسان المفكر فيجد كل شىء داخل ذاته .

- اذهب وانشر فلسفتك هذه فى اليونان حيث الجو دافىء معبأً برائحة الزهور ، أما هنا فالطقس لا يناسبها مع من تحدثت أمس عن ديوجينوس ؟ معك ؟

- أجل . معى .

- لم يكن ديوجينوس فى حاجة الى غرفة مكتب أو الى بيت دافىء فالجو فى اليونان حار . فليرقد فى البرميل وليأكل البرتقال والزيتون ، أما لو كان يعيش فى روسيا لجرى بحثا عن مسكن دافىء فى مايو لا فى ديسمبر والا لتجمد من البرد .

- لا ، لست على حق . ان الانسان يستطيع الا يشعر بالبرد أو بأى ألم آخر . لقد قال مارك أفرييل (١) « الألم هو تصور حى للألم ، فلتستخدم قوة ارادتك لتغيير

---

(١) مارك أفرييل (١٢١ - ١٨٠) امبراطور رومانى وفيلسوف

المترجم

هذا التصور ، ولتتخلص منه ، ولتمتنع عن الشكوى ،  
حينئذ سيختفى الألم » وهذا صحيح . ان الفرق بين الحكيم  
أو الانسان المفكر المتمعن وبين الانسان العادى هو أن الأول  
يحتقر الألم فهو دائما راض لا يستنكر شيئا .

— اذن فأنا معتوه اذ أنى أتألم ، ولأنى غير راض ،  
ولأنى استنكر النذالة .

— لا داعى لكل ذلك ، انك اذا اكرت فى التفكير  
العميق ستجد أن كل ماهو خارج ذاتك وأن كل مايطابقك  
فى منتهى التفاهة ، يجب عليك أن تهدف دائما الى التعقل  
فهو الخير الحقيقى .

— التعقل .. الخارج ، الداخلى .. آسف ولكنى  
لا أفهم ذلك .

ثم نهض ونظر الى الطبيب بغضب وواصل :

— أنا أعلم فقط .. أنا أعلم أن الله خلقنى من دم  
دافىء وأعصاب . نعم ! ان النسيج العضوى لا بد وأن  
يتجاوب ويتفاعل مع المؤثرات الخارجية ، وانى لأتجاوب  
فاذا شعرت بالألم أصرخ وأبكى ، واذا رأيت النذالة  
أغضب ، واذا رأيت الوضاعة أحس بالغثيان . وفى رأى  
أن ذلك بالذات هو الحياة ، وكلما كان الحى أوضع قل  
احساسه وقل تجاوبه مع المؤثرات الخارجية ، وكلما  
كان أسمى كان أكثر تأثرا وكان تجاوبه مع الواقع أسرع ،  
كيف لا تعلم ذلك ؟ طبيب ولا تفهم هذه الأشياء البسيطة !

واذا أراد الانسان أن يحتقر الآلام وان يكون دائما راضيا  
مطمئنا لا بد له أولا أن يصل لمثل هذه الحالة .

وأشار الى الفلاح السمين، على السرير المجاور ،  
وواصل :

- أو لا بد أن يعود نفسه على تحمل الآلام لتلك  
الدرجة التى يفقد عندها الاحساس بالألم أى بكلمة أخرى  
أن يكون فى حكم الميت . اعذرني أنا لست حكيما أو  
فيلسوبا ولا أفهم شيئا فى هذا الموضوع .

وأضاف حانقا :

- أنا لا أستطيع أن أناقش هذا الموضوع .

- بالعكس ان مناقشتك ممتعة .

- لقد كان المشاءون (١)-الذين تدافع عن فلسفتهم-  
رجالا عظاما ، ولكن تعاليمهم هذه قد توقفت عن التطور  
من الفى عام ، ولن تتطور لأنها غير عملية ولا تناسب  
الحياة ، انها لاقت النجاح - فقط عند أقلية من الناس  
يقضون حياتهم فى تحصيل ومناقشة أية تعاليم .

أما الأغلبية فلا تفهمها . ان تلك التعاليم التى تدعو  
لعدم الاهتمام بالمال وملذات الحياة ، والى احتقار الآلام والموت

---

(١) المشاءون - الفلاسفة اليونانيون أتباع المدرسة المشائية التى

أنشأها أرسطو - المترجم .

غير مفهومة تماما بالنسبة للأغلبية الساحقة ذلك لأن هذه الأغلبية لم تعرف لا المال ولا الملذات ، أما أن تحتقر الآلام فهذا يعنى أن تحتقر الحياة ذاتها ، لان كيان الانسان كله يتكون من الاحساس بالجوع والبرد والاحزان والاحساس بخوف هاملت من الموت ، فهذه المشاعر هي الحياة ومن الممكن أن يقاسى منها الانسان وان يكرهها ولكنه لا يستطيع أن يحتقرها . لذا فاني أكرر : لامستقبل لهذه التعاليم ، وفي نفس الوقت من أول القرن نرى تطور فلسفات النضال والاحساس بالألم والمقدرة على التجاوب مع الواقع . .

وفجأة فقد ايفان ديمترتش تسلسل أفكاره فتوقف ، وحك جبينه بغضب ثم واصل :

— كنت اريد ان اذكر شيئا هاما ولكن الامر اختلط على . عما كنت اتكلم ؟ آه ! انى اقول : لقد باع احد المشائين نفسه كعبد ليحرر انسانا عزيزا عليه ، اذن كما نرى حتى المشاءون يتأثرون بالعوامل الخارجية لانه من الضروري لكى يقوم الانسان بعمل سام كافئ ذاته من أجل الغير ان تهتز وتتعذب روحه ، ولو انى لم أنس هنا فى السجن كل ما تعلمته لذكرت لك أمثلة أخرى . فلنأخذ مثلا المسيح ؟ لقد كان المسيح يتجاوب مع الاحداث ، كان يبكى ويبتسم ويحزن ويغضب بل ويشتاق ، وعندما قادوه للصلب لم يكن يبتسم احتقارا للموت بل صلى للرب

فى حديقة جستيمانى ليقية كأس المنون . ثم ضحك ايفان  
ديمترتش وجلس وواصل :

- لنعتبر ان الانسان يجد الهدوء والراحة فى داخل  
ذاته ولنعتبر انه من الضرورى احتقار الآلام والاحتفاظ  
بالسكينة ، فعلى اى اساس تبشر انت بهذه الفلسفة ؟  
أحكيم أنت ؟ أفيلسوف أنت ؟

- لا انا ليست بفيلسوف ، ولكن على كل انسان  
أن ينشر هذه التعاليم لأنها صحيحة .

- ولكنى أريد أن أعلم ، لماذا تعتبر نفسك عالما  
ببواطن الأمور فى موضوع تعقل الحياة واحتقار الآلام ؟  
هل قاسيت الآلام قبلا ؟ هل عندك فكرة عن العذاب ؟ هل  
مثلا كانوا يضربونك صغيرا ؟

- لا ، لقد كان والداى يحتقران العقاب الجسمانى .

- أما أبى فقد كان يضربنى بقسوة ، لقد كان  
رجلا لا يعرف التفاهم ، موظفا جادا بأنف طويل ورقبة  
صفراء . ولكن دعنا نتحدث عنك . طوال حياتك لم يمسسك  
أحد بأصبعه ، ولم يخفك أو يضربك أحد ، وأنت صحيح  
قوى كالثور ، ولقد ترعرعت تحت رعاية والدك وتعلمت  
على نفقته وبعد ذلك رأسا حصلت على الوظيفة ، وتعيش  
أكثر من عشرين عاما فى مسكن حكومى مجانى مزود  
بمدفئة ونور وخادم ، ثم ان لك الحق فى أن تعمل المدة  
التي تحلو لك بل تستطيع ألا تفعل شيئا اطلاقا . وأنت

بطبعك انسان كسول ضعيف الارادة لذا فقد رتبت حياتك بحيث لا يقلقك ولا يحركك من مكانك شىء ، ولقد تركت العمل كله لكبير المرضى ولبقية أنذال المستشفئ وظللت أنت فى الدفء والهدوء ، تجمع النقود وتقرأ الكتب وتتلذذ بالتفكير العميق فى الترهات السامية ، ( وبعد أن نظر ايفان ديمترتش الى أنف الطبيب الأحمر ) كما أنك تعب الخمر ، وبكلمة واحدة أنت لم تر الحياة ولم تعرفها بتاتا ، وكل معلوماتك عن الواقع نظرية . أنت تحتقر الآلام ولا تستنكر شيئا لسبب بسيط : لا معنى لشيء ، الداخليات والخارجيات ، احتقار الحياة والآلام والموت ، التفهم والتعقل ، الخير الحقيقى - كل هذا يكون الفلسفة المريحة بالنسبة للكسول الروسى . فاذا رأيت مثلا فلاحا يضرب زوجته، لماذا أتدخل؟ فليضربها فأخيرا سيموتان ، ثم ان الضارب لا يحقر المضروب بقدر ما يحقر نفسه ، من الغباء واللا أخلاقية أن يسكر الانسان ولكنه سيموت سواء شرب أم لم يشرب . تأتي امرأة الى المستشفى لأن أسنانها تؤلمها . . وماذا فى هذا ؟ ان الألم هو تصور للألم ، ثم انه لا يمكن للانسان أن يعيش فى هذا العالم بلا مرض ، وسنموت جميعا ، لذا اذهبى بعيدا يا امرأة لا تعطلينى عن أن أفكر وأشرب الفودكا . ويسألك شاب « ما العمل ؟ كيف أعيش ؟ » اذا تلقى غيرك هذا السؤال فانه قبل أن يجيب بفكر قليلا ، أما عندك فالرد جاهز « التفهم والتعقل والخير الحقيقى » . ولكن ماهى

هذه الخرافة التي تسميها « الخير الحقيقي » بالطبع لا جواب . اننا هنا مسجونون وراء القضبان نضرب ونعذب ولكن كل هذا عظيم وفي منتهى العقل اذ لا فرق بين هذا العنبر وبين غرفة المكتب الدافئة المريحة . انها لفلسفة مريحة : لا داعي للقيام بأى عمل والضمير مرتاح ، وتشعر بنفسك فى منتهى الحكمة . . لا يا سيدى المحترم انها ليست فلسفة أو اسلوب تفكير أو اتساعا فى النظر ، بل ان ذلك لكسل وافلاس فكرى وأحلام غبية . . أجل !

ثم غضب ايفان ديمترتش مرة أخرى وواصل :  
- أتحقر الآلام ؟ انك - فى الغالب - ستصرخ بكل صوتك اذا أقفل الباب على أصبعك ! فابتسم أندريه يفيمتش بطيبة وقال :

- وقد لا أصرخ .

طبعاً ! واذا أصبت بشلل ، أو اذا استغل أى سفيه وضعه أو مركزه فأهانك أمام الناس، وكنت تعلم أنه لن يعاقب على ذلك ، لرأينا كيف ستستطيع أن تنصح الآخرين بالتعقل والبحث عن الخير الحقيقي !

فضحك أندريه يفيمتش مسرورا وفرك يديه قائلا :

- شئ لطيف ! اننى مندهش ومسرور من حبسك للتعميم ، أما الصورة التي رسمتها لى فرائعة ، اننى أعترف أن الحوار معك يشعرنى بالغبطة . حسنا لقد أنصت اليك ، والآن أرجو أن تنصت الى . .



واستمر الحديث ساعة أخرى ، ويبدو أنه ترك في نفس أندريه يفيمتش أثرا عميقا فأصبح يزور العنبر يوميا . وكان يتوجه الى هناك صباحا وبعد الغداء وكثيرا ما كانا يواصلان الحديث الى المساء . وفي مبدأ الامر كان ايفان ديمترتش يخاف الطبيب ويشك في نواياه بل كان يظهر عدم ميله له ، ولكنه بمرور الوقت تعود عليه وغير طريقته الجافة في الحديث فصار يتحدث اليه بلين وتهكم .

وسريعا ما انتشرت في المستشفى اشاعة بأن الدكتور اندريه يفيمتش أصبح يزور العنبر رقم ٦ ، ولم يستطع احد لا كبير المرضين ولا نيكيتا ولا المرضات ان يفهم . لم يزور الطبيب العنبر ؟ ولم يجلس هناك بالساعات ، وعم يتحدث ، ولم لا يكتب روصتات للمرضى بالعنبر ؟ . وكانوا يتعجبون من تصرفاته ، وكثيرا ما كان ميخائيل افرينانتش لا يجد الطبيب في مسكنه ولم يكن ذلك ليحدث ابدا ، كما ان داريوخسكا أصبحت في منتهى القلق من ان الطبيب صار يشرب البيرة في أوقات مختلفة بل صار يتأخر أحيانا عن ميعاد الغداء .

ومرة ، فى أواخر يونيو توجه الدكتور خوبوتوف الى  
اندريه يفيمتش لسبب ما ولم يجده فى مسكنه فتوجه الى  
الفناء الخارجى ليسأل عنه فأخبروه انه ذهب الى المجانين،  
دخل خوبوتوف الى المبنى الصغير وتوقف فى مدخله حيث  
سمع ايفان ديمترتش يقول بغضب :

- لن نتفق أبدا ، ولن تستطيع أن تجعلنى أومن  
بمعتقداتك ، فانك لا تعرف الحياة اطلاقا ، ولم تقاس الآلام  
بل قضيت حياتك بجوار آلام وجروح الآخرين كدودة العلق  
أما أنا فأقاسى الآلام من ميلادى للآن دون انقطاع ، لذا  
فانى أقول بصراحة : أنا أعتبر نفسى أسمى وأكثر علما منك  
من جميع النواحي . انك لا تستطيع أن تعلمنى .  
فقال اندريه يفيمتش بصوت خافت وبضيق من ان  
محدثه لم يفهمه :

- ليس لى غرض بناتا فى ان اجعلك تؤمن بمعتقداتى،  
ليس هذا هو المهم ، وليس المهم انك قاسيت الآلام ولم  
اقاسها أنا ، فالعذاب والفرح غير أبديين فلنتركهما . المهم  
اننا نفكر وان كلا منا يجد فى الآخر انسانا قادرا على التفكير  
والمناقشة وهذا يجعلنا متضامنين مهما اختلفت وجهات  
نظرنا . آه لو تعلم يا صديقى كم كرهت الجنون العام عند  
الناس وعدم صلاحيتهم وغباوتهم وكم يسعدنى الحوار معك  
انك انسان ذكى وانى لأتلدد بك .

فوارب خوبوت الباب ونظر الى الداخل فرأى ايفان

ديمترتش بطاقيته والدكتور أندريه يفيمتش جالسـين  
متجاورين على السرير ، المجنون يحرك قسـمات وجهه بشدة  
وينتفض ويللم معطفه حول جسده باضطراب ، اما الطبيب  
فيجلس دون حركة ، رأسه على صدره ، ووجهه أحمر يظهر  
عليه تعبير العجز والحزن ، فهز خوبوتوف كتفيه وابتسم  
مستهزئاً ونظر الى نيكيـتا الذى هز كتفيه هو الآخر .

وفى اليوم التالى حضر خوبوتوف مع كبير الممرضين  
الى المبنى الصغير حيث وقفا فى المدخل يسترقان السمع .

وعندما خرجا قال خوبوتوف :

— يبدو أن الجـد قد خرف تماما .

فتنهـد سرجيى سرجيتش قائلاً :

— غفرانك يا رب !

ثم تحاشى فى سيره نقرة مليئة بالمياه القذرة حتى  
لا يتسخ حذاؤه اللامع وأضاف :

— الحقيقة يا يفجيني فيودرتش المحترم انى أتوقع

ذلك من زمن !

- ١٢ -

أصبح أندريه يفيمتش يلاحظ أشياء غريبة ، فعندما  
يقابله عمال وممرضات المستشفى ينظرون اليه بتساؤل ثم  
يتهامسون ، وقبلـا عندما كان يقابل ماشـا - طفلة أمين

المخزن - فى حديقة المستشفى كان يمسح على شعرها ويداعبها ، أما الآن فانها تهرب منه عندما تجده يتقدم اليها مبتسما ، كذلك لم يعد ميخائيل أفريانتش يكرر عندما يستمع الى الطبيب « صحيح تماما » بل صار يتمتم بخجل « أجل . . أجل . . » وأصبح ينظر اليه طويلا وبحزن ولسبب ما صار ينصحه بعدم شرب الفودكا والبيرة ، ولكنه كرجل مهذب كان يقدم نصائحه بطريق غير مباشر فمثلا يحكى عن أحد الضباط أو عن أحد رجال الدين - ناس طيبون - كانوا يشربون فمرضوا ثم تركوا الشرب فصنفوا تماما . كما زاره خوبوتوف مرتين أو ثلاث وأخذ ينصحه بترك المشروبات الروحية وأصبح يوصيه - دون ابداء اسباب - بأن يتناول محلول بروميد الصوديوم .

وفى أغسطس تلقى أندريه يفيمتش خطابا من عمدة المدينة يرجوه فيه الحضور الى مقر مجلس المدينة لأمر هام ، وعندما ذهب أندريه يفيمتش فى الميعاد المحدد وجد هناك قائد وحدة الجيش بالمدينة وناظر مدرسة المدينة وأحد أعضاء مجلس المدينة وخوبوتوف ورجلا أبيض ممثلنا قدموه له كطبيب يقيم ويعمل فى مصنع يبعد ثلاثين فرسخا عن المدينة وكان موجودا فى المدينة بالصدفة .

وبعد ان جلس الجميع حول مائدة الاجتماعات قال عضو مجلس المدينة موجه حديثه لأندريه يفيمتش :

- عندنا طلب مقدم من يفجينى فيودرتش خوبوتوف

يقول فيه ان الصيدلية فى مبنى المستشفى الرئيسى صغيرة ويجب نقلها الى أحد المباني الصغيرة الملحقة بالمستشفى طبعاً لا مانع من نقلها ولكن لابد من اجراء بعض الاصلاحات فى ذلك المبنى .

ففكر أندريه يفيمتش وقال :

– أجل ، لا بد من اجراء بعض الاصلاحات وسيكلفنا نقلها مثلاً الى المبنى الموجود عند الناصية خمسمائة روبل كحد ادنى ، وهذه مصروفات غير انتاجية .  
وبعد صمت قليل واصل أندريه يفيمتش بصوت منخفض :

– لقد تشرفت بعرض تقرير عن المستشفى من حوالى عشر سنوات قلت فيه ان المستشفى بوضعه الحالى يعتبر باهظة التكاليف بالنسبة للمدينة ، لقد انشئت فى الاربعينيات ولكن ميزانية المدينة عندئذ كانت غيرها الآن ، ان المدينة تنفق الكثير على مباني غير ضرورية وعلى وظائف زائدة عن الحاجة وفى رأى ان المدينة بنفس هذه الميزانية فى ظروف أخرى وبطريقة أخرى تستطيع ان تنفق على مستشفيات جيدين .

فقال عضو المجلس بحرارة :

– فلتخلق الظروف الأخرى .

– لقد تشرفت بأن أطلب بتحويل ادارة المستشفى لمجلس المحافظة .

فقال الطبيب الابيض :

– اذا حولت النقود الى مجلس المحافظة فانها  
تسرق .

ثم ضحك . فوافق عضو مجلس المدينة قائلا :

– هكذا جرت العادة .

ثم ضحك ايضا . فرفع اندريه يفيمتش عينيه ببطء  
وقال بهدوء :

– لابد ان يتوخى المرء العدل فى احكامه .

وخيم الصمت ثانية ، ثم قدموا الشاى ، ولمس  
الضابط يد أندريه يفيمتش عبر المائدة بخجل شديد  
وقال :

– لقد نسيتمنا تماما يا دكتور ، انك كالقديس  
لا تلعب الورق ولا تحب النساء لذا فان صحبتنا غير  
مسلية بالنسبة لك .

– ثم بدأ الجميع يتحدثون عن ان الحياة مملة فى  
المدينة بالنسبة للانسان المحترم . لا مسرح ، لا موسيقى  
ومثلا فى حفل النادى الأخير كانت تقف عشرون امرأة  
فى صالة الرقص ، ومعهن رجلان فقط فالشباب لا يرقص  
بل يتجمع حول المقصف للشرب ، أو يلعب الورق ، وبدأ  
أندريه يفيمتش يتحدث بهدوء وبطء عن أنه حزين وحزين  
بعمق من ان أهل المدينة يفقدون طاقاتهم ويشغلون قلوبهم  
وعقولهم بالحوض فى أحوال الناس وبلعب الورق وليس

لديهم الرغبة فى قضاء الوقت فى الأحاديث الذكية الشيقة  
أو فى القراءة أى لا يرغبون فى التمتع بالعقل فالعقل وحده  
هو الشيء الشيق الرائع ، أما باقى المتع فكلها سطحية  
ووضيعة .

وكان خوبوتوف ينصت لزميله وفجأة سألته .

– أندريه يفيمتش ، ما تاريخ اليوم ؟

وبعد أن أجاب أندريه يفيمتش أخذ خوبوتوف  
والطبيب الأبيض يسألانه – بلهجة الممتحن الغير محنك –  
الأسئلة التالية : ما اليوم من أيام الأسبوع ؟ كم يوما فى  
العام ؟ وهل صحيح ما يقال عن ظهور نبى فى العنبر  
رقم ٦ ؟

وعندما سمع أندريه يفيمتش السؤال الأخير احمر  
وجهه وقال :

– هناك مريض ولكنه شاب ذكى شيق الحديث .

ثم انتهت الأسئلة على ذلك .

وعندما كان أندريه يفيمتش يرتدى معطفه فى المدخل  
وضع الضابط يده على كتفه وقال له متنهدا :

– يجب علينا نحن العجائز أن نستكين للراحة .

ولما خرج أندريه يفيمتش من مقر المجلس أدرك أن  
ذلك كان « كونسلتو » لاختبار قواه العقلية وتذكر الأسئلة  
التي وجهت اليه فاحمر وجهه ولسبب ما ولأول مرة فى  
حياته حزن على حالة الطب وفكر فى الطبيين وأسئلتهما  
قائلا فى نفسه « يا الهى . انهم من مدة قصيره فقط درسوا

منهج علم النفس وأدوا امتحانه فمن أين هذا الجهل ؟  
ليست عندهم أى فكرة عن علم النفس » .

وأحس بالمهانة والغضب لأول مرة .

وفى نفس اليوم زاره ميخائيل أفريانتش ، وبلا تحية  
تقدم اليه رجل البريد وأمسك بكلتا يديه ، وقال له بقلق :  
— يا عزيزى ، يا صديقى ، أثبت لى أنك تثق فى

اخلاصى وتعتبرنى صديقك ... يا صديقى !  
ودون أن يعطى لأندريه يفيمتش فرصة ليتكلم واصل

بتوتر :

— انى أحبك لشقاقتك وطيبة نفسك ، اسمعنى يا  
صديقى العزيز ، ان قوانين العلم تضطر الأطباء أن يخفوا  
عك الحقيقة أما أنا فأقول الحقيقة دون مواراة—كالعسكريين  
أنت مريض ! أعذرنى يا صديقى ولكنها الحقيقة ، لقد لاحظت  
ذلك كل المحيطين بك ، ولقد أخبرنى الآن الدكتور يفجينى  
فيودرتش أنه من أجل صحتك لا بد لك من الراحة  
والاستجمام . ذلك صحيح تماما ! رائع ! فى ظرف أيام  
سأقوم بأجازة وسأسافر لأستنشق هواء جديدا . أرجو  
أن تثبت لى أنك صديق ولنسافر سويا ، هيا نسافر ونلهو

— انى أشعر بأننى صحيح تماما ، وأنا لا أستطيع

السفر ، فاسمح لى أن أثبت لك صداقتى بطريقة أخرى .  
لقد خيل له للوهلة الاولى أن فكرة السفر الى مكان  
ما دون أسباب ، بلا كتب ، ودون دار يوشسكا ، ودون  
البيرة ، هذا السفر الذى سيغير نظام حياته الذى لم يتغير



منذ أكثر من عشرين عاما ، فكرة غير معقولة وخرافية ،  
ولكنه تذكر الحديث الذى دار فى مجلس المدينة فعاد اليه  
مزاجه الثقيل الذى قاسى منه عند عودته من المجلس ،  
فتراءت له فكرة مغادرة هذه المدينة التى يعتبره أهلها  
مجنونا فكرة لطيفة فقال :

- والى أين نويت على السفر ؟

- الى موسكو الى بطرسبرج ، الى وارسو ٠٠٠ لقد  
قضيت أسعد خمس سنوات من عمري فى وارسو ، يا لها  
من مدينة رائعة ! فلنسافر يا عزيزى .

- ١٣ -

بعد أسبوع طلب من أندريه يفيمتش أن يخلد  
للراحة اى ان يقدم استقالته ، فلم يحزن ، وبعد أسبوع  
آخر كان يجلس مع ميخائيل افريانتش فى عربة البريد  
متجهين الى أقرب محطة سكة حديد ، كان الجو باردا  
والسماء صحوا والافق يطل عليهم من بعد ، وقطعا مسافة  
المائتى فرسخ الى المحطة فى يومين وباتا فى الطريق ليلتين  
وفى محطات البريد كان ميخائيل افريانتش يغضب عندما  
يجد أكواب الشاى غير مغسولة جيدا أو عندما يتأخر العمال  
فى تغيير خيل العربة ، وعندئذ كان وجهه يحمر وكل

جسده يرتجف ويصرخ « احرص • لا تناقش ! » ، وعندما يجلسان فى العربة كان رجل البريد يحكى عن رحلاته فى القوقاز وفى الامبراطورية البولندية • كم كانت هناك مغامرات ولقاءات ! وكان يتكلم بصوت عال ويفتح عينيه بتعجب كأنه يكذب وكان يتنفس فى وجه أندريه يفيمتش ويقهقه فى أذنه مما ضايق الطبيب وجعله عاجزا عن التركيز •

واقترصادا للنفقات سافرا فى عربة الدرجة الثالثة لغير المدخنين ، وكان نصف المسافرين أناسا محترمين ، وسريعا ما تعرف ميخائيل افريانتش على كل الركاب وصار ينتقل من مقعد لآخر ويقول بصوت مرتفع انه لايجب على المرء ان يسافر على هذه الخطوط المتعبة ، وأن الطريق ملىء بالنشالين ! أما المتعة الحقيقية فهى السفر على ظهور الخيل تقطع فى اليوم الواحد مائة فرسخ وبعدها تشعر بنفسك صحيحا قويا ، وأن تجفيف المستنقع هو السبب فى قلة المحصول هذا العام ، وعموما فان الفوضى مستشرية • كان يتكلم عن كل ذلك بصوت مرتفع وبحدة ولا يعطى الفرصة لأحد أن يشترك فى الحديث ولقد أتعبت هذه الثروة المتصلة المصحوبة بالقهقهة والحركات التمثيلية أعصاب أندريه يفيمتش الذى صار يفكر بغضب « من منا المجنون ؟ أنا الذى لا أحاول ان أقلق راحة الركاب ، أم هذا الانانى الذى يظن نفسه أذكى وألطف الجميع ، ولذا لايعطى لأحد فرصة للراحة والهدوء » •

وفى موسكو ارتدى ميخائيل أفريانتش حلة عسكرية دون علامات لأى رتبة والسر اويل ذات الشرائط الحمراء وكان يسير فى الشوارع بالمعطف والقبعة العسكرية مما جعل الجنود يحيونه وصار أندريه يفيمتش يفكر انه لم يبق لهذا الرجل من آثار ومظاهر غناه الا السيىء ، فكان يحب ان يخدمه الآخرون حتى عندما لا تكون هناك ادنى حاجة لذلك فمثلا كثيرا ما كان ينادى على الساقى فى المطعم ليشعل له السيجارة متظاهرا بأنه لا يرى الكبريت الموجود أمامه على المنضدة ، ولم يكن يخجل من أن يسير بملابسه الداخلية أمام خادمتى الفندق ، وكان يتحدث مع كل الخدم حتى كبار السن منهم باحتقار ، وعندما يغضب يسبهم بأقبح الألفاظ ، وكان أندريه يفيمتش يرى فى ذلك مظاهر غنى لكنها مقززة للنفس .

وأول ما فعله ميخائيل أفريانتش فى موسكو هو أن قاد صديقه الى كنيسة ايفرسكى حيث أخذ يصلى بحرارة ويسجد ، ويبكى ، وعندما انتهى من الصلاة تنهد وقال :  
- مع انى لا أومن الا أن السكينة تملأ نفسى بعد الصلاة . قبل الأيقونة يا عزيزى !

فشعر أندريه ويفيمتش بالحجل وقبل الأيقونة ، فمد ميخائيل أفريانتش شفتيه وهز رأسه وتمتم بالصلاة وطفرت الدموع من عينيه ثانية ، وبعد ذلك توجه الى الكرملين حيث زارا معاملة بل ولمسا بعضها ، وتمتعا بالمشاهد المشرفة على نهر موسكوفا ، كما زارا معبد سباسيتل ومتحف روميانتسفسكى .

وتناولوا الغداء فى مطعم . . «تيستوف» حيث أمسك  
ميخائيل أفريانتش بكشف المأكولات ونظر فيه مليا ثم  
قال للنادل بلهجة من تعود على تناول الطعام فى المطاعم  
المحترمة :

— لنر ما ستطعمنا اليوم يا ملاكى .

## - ١٤ -

كان الطبيب يتجول ويأكل ويشرب ولكنه كان يشعر  
باحساس واحد : الضيق من ميخائيل أفريانتش ، كان  
يرغب فى أن يستريح منه ومن صحبته ، ويود لو يختبئ  
منه . أما الآخر فكان يعتبر أن واجبه مرافقة الطبيب  
باستمرار ليمنحه أكبر قدر من متع التنزه واللهو ، وأما  
فى الفندق فكان يرفه عنه بالحديث ، وتحمل أندريه  
يفيمنتش هذا الوضع يومين ولكن فى اليوم الثالث أخبر  
صديقه بأنه مريض ويرغب فى أن يستريح اليوم بأكمله  
فى الفندق ، فقال الصديق انه سيبقى أيضا . طبعاً لابد  
من الراحة والا سيفقد المرء قدميه من كثرة التنزه !

رقد أندريه يفيمتش على الأريكة ووجهه للمسند ،  
وكز على أسنانه وصار يسمع صديقه الذى كان يحدثه  
بحرارة عن أن فرنسا ان عاجلا أو آجلا ستهزم ألمانيا ،

وأن موسكو مليئة بالنشالين ، وأنه من الصعب أن تحكم  
بمجرد النظر ان كان الحصان سليما .

فصغرت أذنا الطبيب وأسرعت نبضاته ولكنه لم  
يستطع - كانسان مهذب - ان يطلب من صديقه ان يصمت  
ولحسن الحظ مل ميخائيل أفريانتش الجلوس فى الغرفة  
فخرج بعد الغداء للنزهة .

وشعر أندريه يفيمتش بالراحة التامة عندما صار  
وحده . يالها من راحة عندما يرقد الانسان على الاريكه  
دون ادنى حركة شاعرا أنه وحيد بالغرفة ! ان السعادة  
الحقيقية مستحيلة بغير الوحدة . لقد عصى ابليس ربه  
لأنه - ابليس - أراد الوحدة التى لا يتمتع بها بقية الملائكة  
وود أندريه يفيمتش أن يفكر فيما رأى وسمع فى الأيام  
الأخيرة ولكن ميخائيل أفريانتش لم يغادر مخيلته ، وأخذ  
يفكر بضيق « الغريب انه قام باجازته ورافقنى بشعور  
من الصداقة والتضحية ، ولكن لا يوجد شئ أسوأ من  
وصاية الصديق . انه يظهر كانسان طيب مخلص مرح الا  
انه ممل ، ممل لدرجة غير محتملة . وكثيرا ما تقابل نوعا  
من الناس الذين يقولون كلاما ذكيا طيبا ولكن يشعر المرء  
بأنهم أغبياء » .

وصار أندريه يفيمتش يدعى المرض فى الأيام التالية  
فكان يرقد على الأريكة ووجهه للمسند يتعذب اذا رفه عنه  
صديقه بالحديث ، ويستريح اذا غاب لقد كان غاضبا من  
نفسه لانه وافق على السفر ، وغاضبا من صديقه لأن

الأخير صار بمرور الوقت أكثر ثرثرة واكل تهديبا ولم يعد يتحدث فى موضوعات جادة سامية .

وأخذ اندريه يفيمتش يفكر غاضبا من ان انتفاهات أصبحت تشغل باله « ها هو العالم الخارجى يؤثر على كما كان ايفان ديمترتش يقول . لا كل هذا غير ذى بال ... فعندما سأعود الى منزلى سيعود كل شىء كما كان » .

وفى بطرسبرج تكرر نفس الوضع . قضى الطبيب ايامه فى غرفته بالفندق راقدا على الأريكة وينهض فقط لشرب البيرة .

وكان ميخائيل افريانتش يلح عليه باستمرار ان يسرعا بالسفر الى وارسو ، فيقول له أندريه يفيمتش بصوت كله رجاء :

- يا عزيزى ، لماذا أسافر أنا ؟ فلتسافر وحدك ، واسمح لى بالعودة . ارجوك !

ولكن ميخائيل افريانتش كان يعارض قائلا :

- لا يمكن بأى حال من الاحوال . انها مدينة رائعة .

لقد قضيت بها أسعد خمس سنوات من عمري ! ولم يجد اندريه يفيمتش فى نفسه قوة الارادة الكافية للرفض . فسافر معه ممزق القلب وهناك لم يخرج من غرفته بتاتا . فكان يرقد على الاركة حائقا على نفسه، وعلى صديقه وعلى الخدم الذين كانوا مصممين على عدم فهم الروسية . أما ميخائيل افريانتش فكان صحيحا مرحا

كعاداته ، يئنزه فى المدينة من الصباح للمساء ، ويبحث عن أصدقائه القدامى • ولم يبت فى الفندق عدة ليال ، وذات مرة بعد ليلة قضاها بالخارج عاد فى الفجر فى حالة شديدة من التهيج أحمر الوجه أشعث الشعر ، وأخذ يسير من ركن لآخر متمتما بكلمات غير واضحة ثم توقف وقال :

— الشرف قبل كل شىء !

وسار قليلا ثم أمسك برأسه وقال بصوت تراجيدى :  
— أجل • الشرف قبل كل شىء ! ملعونة تلك اللحظة التى جاءتني فيها فكرة السفر الى سوق بابل هذا •  
ياعزيزى فلتحتقرنى : لقد خسرت كل شىء فى القمار !  
اعطني خمسمائة روبل !

فعد أندريه يفيمتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه صامتا ، فتمتم هذا بقسم غير ضرورى وهو لا يزال أحمر الوجه خجلا وغضبا • وعاد بعد حوالى ساعتين وارتقى على المقعد وتنهد بصوت مسموع قائلا :  
— لقد أنقذت شرفى ! فلنرحل يا صديقى ! لا توجد عندى أى رغبة فى البقاء دقيقة أخرى فى هذه المدينة الملعونة • اللصوص ! جواسيس النمسا !

وعاد الى مدينتهما فى نوفمبر حيث كان الجليد يغطى الشوارع ، وكان خوبوتوف يشغل وظيفة أندريه يفيمتش فى المستشفى ولا يزال يقطن مسكنه القديم فى انتظار عودة اندريه يفيمتش ليخلى مسكنه التابع للمستشفى ، وأصبحت المرأة الدمية — التى كان خوبوتوف قد ادعى

انها طاهيته - تشغل أحد المباني الصغيرة الملحقة  
بالمستشفى .

وكانت هناك اشاعات جديدة عن المستشفى ، فمثلا  
قيل ان المرأة الدميمة تخاصمت مع أمين المخزن وركع  
الأخير على ركبتيه طالبا منها الصفع .

وفى أول يوم بعد العودة اضطر أندريه يفيمتش أن  
يبحث لنفسه عن مسكن جديد . وسأله رجل البريد  
بخجل :

- يا صديقي . أرجو المَعذرة عن سؤالى الجريء : كم  
لديك من النقود ؟

فعد أندريه يفيمتش ما معه من النقود وقال :

- ستة وثمانون روبلا .

فقال ميخائيل أفريانتش بخجل وضيق من أن  
الطبيب لم يفهمه :

- أنا لا أسأل عما معك الآن ، بل أسألك عما تملك  
عموما .

- لقد قلت لك . . ستة وثمانون روبلا . . ليس عندي  
شئ آخر .

ولقد كان ميخائيل أفريانتش يعتبر أن الطبيب  
إنسان شريف وطيب ولكنه كان يشك فى أن عنده ادخارات  
لا تقل عن عشرين ألف روبل ، أما وقد علم أن أندريه  
يفيمتش معدم ولا يملك ما يعيش به بكى فجأة ، واحتضن  
صديقه .



استأجر اندريه يفيتمتش بيتا صغيرا ذا ثلاث نوافذ تملكه امرأة فقيرة تدعى بيلوفا ، ويحتوى المنزل على ثلاث غرف ومطبخ ، شغل الطبيب غرفتين تطل نوافذهما على الشارع ، وشغلت داريوخسكا والمرأة بأطفالها الثلاثة الغرفة الباقية والمطبخ ، وأحيانا كان يأتى عشيق بيلوفا لبيت عندها ، وكان هذا العشيق فلاحا سكييرا كثير الصياح ليلا مما يدخل الرعب فى قلوب الأطفال وداريوخسكا كان يحضر ويجلس فى المطبخ ثم يبدأ يطالب بالفودكا ، وعندئذ يصبح الجميع فى غاية الضيق ، فيشفق الطبيب على الأطفال الباكين ويأخذهم ليناموا فى غرفته . وكان ذلك يجلب له سرورا جما .

وكان الطبيب كسابق عهده يستيقظ فى الثامنة ، يتناول الشاى ثم يبدأ فى قراءة كتبه ومجلاته القديمة فلم يكن لديه نقود ليشتري الجديد منها . ولأن الكتب القديمة وربما بسبب التغيير الذى طرأ على حياته لم تعد القراءة تمنحه المتعة التى كان يشعر بها قبلا ، بل أصبحت متعبة بالنسبة له ، وكى يشغل وقته بأى شئ ، بدأ فى عمل « كتالوج » لكتبه ، فأخذ يلصق على غلافها ارقاما مسلسلة وخيل له ان هذا العمل الميكانيكى البطيء ألطف من القراءة وأصبح هذا العمل بتشابهه ورتابته يهدده أفكاره ويجعله لا يفكر فى شئ وبذلك اصبح الوقت يمر سريعا ،

كذلك أصبح الجلوس فى المطبخ وتنظيف البطاطس أو تنقية الأرز مع داريوشكا عملا شيقا بالنسبة له . وصار يزور الكنيسة ايام السبت والاحد من كل اسبوع فيقف بجوار الحائط مسبلا عينيه يسمع التراتيل ويفكر فى والديه ويفكر فى الجامعة وفى الاديان شاعرا بالسكينة والحزن ، وعندما تنتهى الصلاة يخرج من الكنيسة آسفا انها انتهت هكذا بسرعة .

وقد زار المستشفى مرتين ليتحدث مع ايفان ديمترتش ولكن فى كلتا المرتين وجد ايفان ديمترتش متهيجا غاضبا بدرجة غير عادية ، وكان يطلب منه ان يتركه فى هدوء لانه لم يعد يستسيغ الثروة الفارغة ويقول انه يرجو من الناس الاندال الملعونين تعويضا واحدا فقط عن كل الآلام التى قاساها الا وهو السجن الانفرادى . هل سيرفض حتى هذا الرجاء ؟ وعندما كان اندريه يقيمتش يودعه راجيا له ليلة هادئة كان الآخر يرد بغضب :

— اذهب الى الشيطان !

ولم يكن اندريه يقيمتش يدرى : أيعاود الزيارة ، بالرغم من انه يودها .

وقبلا كان الطبيب يسير فى الحجرات مفكرا ، أما الآن فأصبح يرقد بعد الغداء حتى موعد شاي المساء ، كان يرقد ووجهه للحائط يفكر فى المسائل البسيطة التى لا يستطيع لها درءا . لقد كان يحز فى نفسه انه لم يمنح معاشا ثابتا أو حتى مكافأة عن مدة خدمته التى تزيد على

العشرين عاما . صحيح انه لم يعمل بأمانة ولكن كل الموظفين ينالون معاشا سواء عملوا بشرف أو بدون شرف . ان العدالة حاليا تتلخص فى أن الحكومة لا تكافىء بالمناصب والأوسمة والمعاشات الموظف الجيد بل تكافىء بها العمل الحكومى عموما جيدا كان أو سيئا . فلم شذ هو بالذات عن هذه القاعدة ؟ لقد أصبح معدما تماما ، فصار يخجل من أن يمر أمام حانوت البقال وان ينظر الى صاحبة المنزل اذ كان مدينا للأول بائنين وثلاثين روبلا ثمننا للبيرة كما كان مدينا أيضا للمرأة ، وكانت داريوخكا تبيع سرا الملابس القديمة وبعض الكتب وتدعى أمام صاحبة المنزل أن الدكتور قريبا سيحصل على مبلغ كبير من المال .

وكان غاضبا على نفسه لأنه أنفق على الرحلة الالف روبل التى ادخرها . كم يكون هذا المبلغ مفيدا الآن ! كما كان حانقا لأن الناس لا يتركونه فى هدوء ، فكان خربوتوف يعتبر أن من واجبه زيارة زميله المريض ، وكان أندريه يفيمتش يكره فيه كل شىء : وجهه الممتلىء الشبع ولهجته وطريقة كلامه السيئة « المتواضعة » وكلمة «يازميل المهنة» وحذائه ذا الكعب العالى ، أما أسوأ ما فيه فهو أنه كان يعتبر نفسه مسئولا عن علاج أندريه يفيمتش ، بل كان يظن أنه فعلا يعالجه ، فكان يحضر معه فى كل زيارة قنينة بروميد الصوديوم وحبوبا من دواء آخر .

وكان ميخائيل أفريانتش كذلك يعتبر أن من واجبه زيارة صديقه ليرفه عنه ، فكان يدخل عليه كل مرة متصنعا

رفع الكلفة ويقهقه بافتعال ثم يؤكد لصديقه أنه اليوم يبدو رائعا، والحمد لله أن الحال يتحسن والشفاء التام قريب، مما ثبت أنه كان يعتبر أن حالة صديقه ميئوس منها . وقد كان يشعر بالحجل العميق لأنه لم يرجع قرض وارسو بعد، ولاخفاء خجله كان يحاول أن يقهقه بصوت أعلى وأن يقص فكاهات أكثر ، وبدأت قصصه وفكاهاته لا نهائية مما كان يعذب أندريه يفيمتش ويعذبه هو نفسه . وفي حضوره كان أندريه يفيمتش يرقد على السرير ووجهه للمحائط . يسمع ويعض نواجذه ، ويشعر بأنه يغلى من الداخل ، وبعد كل زيارة يشعر أن هذا الغليان يرتفع حتى ليكاد يخنقه .

ولكى يحرر نفسه من هذه الاحساسات التافهة ، كان يفكر أنه هو وخوبوتوف وميخائيل أفريانتش سيموتون جميعا ان عاجلا أو آجلا ، ولن يتركوا وراءهم حتى البصمات ، وإذا تصور المرء أنه بعد مليون عام مرت روح ما بجوار الكرة الأرضية فلن ترى الا التربة والصخور الجرداء ، فسيختفى كل شيء - حتى الحضارة والقوانين الأخلاقية - بلا أى أثر ، فلم الحجل اذن من البقال ، ولم الغضب من خوبوتوف الحقيير أو من صداقة ميخائيل أفريانتش الثقيلة ؟ كل هذا كلام فارغ وترهات .

ولكن هذه الأفكار لم تعد تساعد ، فعندما يرسم فى مخيلته صورة الكرة الأرضية بعد مليون عام بصخورها الجرداء فمن وراء احداها يظهر له خوبوتوف بحدائه ذى

السكعب العالى ، أو يظهر ميخائيل أفريانتشس بقهقهته  
المفتعلة ، بل يخيل اليه أنه يسمع همسا خافتا خجلا  
« سآرد لك قرض وارسو قريبا .. كن متأكدا » .

## - ١٦ -

وذات يوم حضر ميخائيل أفريانتشس بعد الغداء عندما  
كان أندريه يفيمتشس راقدا على سريريه ، وبالصدفة ظهر فى  
نفس الوقت خوبوتوف ومعه بروميد الصوديوم ، فنهض  
أندريه يفيمتشس متشاقلا وجلس على السرير واضعا يديه  
تحت ذقنه ، وبدأ ميخائيل أفريانتشس الحديث قائلا :

— أما اليوم يا عزيزى فلون وجهك أحسن كثيرا من  
الأمس . أجل أنت رائع ! أى والله رائع !  
فقال خوبوتوف متثابرا :

— لقد حان الوقت . حان الوقت يا زميلى ، فلا بد  
انك مللت هذه اللعبة .

فقال ميخائيل افريانتشس بمرح :

— طبعا سنشفى ! بل وسنعمر لمائة عام ! ماذا  
تظن ؟

فقال خوبوتوف :

– مائة عام أو أقل ، المهم صحته تكفيه لمدة عشرين  
عاما أخرى • لا تبتئس يا زميلي ، لا تبتئس •• لا داعى  
لطمس الحقائق بوضع الظلال عليها •

وقال مينخائيل افريانتش :

– سترى ما سنفعل !

ثم قهقه وربت بكفه على ركة صديقه وأضاف :

– سترى ما سنفعل ! فى الصيف القادم ان شاء الله  
سنرحل الى القوقاز وسنمتطى هناك ظهور الخيل – تاك •  
تاك • تاك ! ثم نعود من القوقاز لنلهو فى حفلة الزفاف •

وغمز بعينه لاندريه يفيمتش وأضاف :

– سنزوجهك يا صديقى العزيز •• سنزوجهك ••

فشعر أندريه يفيمتش فجأة بالغليان يملؤه ويصل  
لحلقه ، وتوالت دقات قلبه ، فقال :

– يا للترهات !

ونفض مسرعا وتوجه الى النافذة وأضاف :

– ألا تشعرون بأنكم تقولون ترهات قدرة ؟

وأراد أن يواصل كلامه بطريقة هادئة مهذبة ولكنه  
رغم ارادته ضم يديه ورفع قبضاته الى أعلى واحمر وجهه  
وارتجف جسده وصرخ بصوت رهيب :

– اتركانى ! اخرجنا ! اخرجنا سويا فى الحال !

فنهض ميخائيل أفريانتش وخوبوتوف محدقين  
بتعجب ثم بخوف ، فى حين صرخ أندريه يفيمتش :

— اخرجنا ! يا للأغبياء ! يا للغباء ! لست محتاجا  
لصداقتك ولا لأدويتك يا غبى ! يا للحقارة ! يا للوضاعة !

وتبادل خوبوتوف وميخائيل أفريانتش النظرات  
بتعجب وتوجها للباب خارجين ، وأمسك أندريه يفيمتش  
بزجاجة بروميد الصوديوم وقذف بها وراءهم فاصطدمت  
بالباب وتحطمت ، وتتبعهم الى مدخل المنزل صارخا :

— اذهبا الى الشيطان ! الى الشيطان !

وبعد أن خرجا ظل أندريه يفيمتش ينتفض كالمحموم  
ويكرر :

— يا للغباء ! يالهم من أغبياء !

ولما هدأت ثورته كان أول ما ورد على عقله أن  
ميخائيل أفريانتش المسكين غالبا ما يشعر الآن بالحجل  
الشديد وأنه لابد يتعذب من الشعور بالذنب ، عموما لقد  
حدث شئ فظيع لم يحدث قبلا مطلقا . أين العقل والمنطق؟  
أين تعقل الأشياء وأين الهدوء النفسى ؟

ولم يستطع الطبيب أن ينام طول الليل من الأسى  
والحجل من نفسه ، وفى العاشرة صباحا توجه الى مكتب  
البريد واعتذر لصاحبه ، فتأثر ميخائيل أفريانتش جدا  
وصافحه بقوة وقال متنهدا :

– لننسى ما مضى .

وصرخ فجأة مناديا أحد السعاة صرخة جعلت كل الموظفين والعلماء ينتفضون :

– احضر مقعدا !

ثم صرخ فى وجه المرأة التى كانت تقـدم له من الشباك خطابا مسجلا ، قائلا :

– انتظرى ! ألا ترين أنى مشغول ؟

ثم التفت لأندريه يفيمتش وقال له بهدوء ولطف :

– اجلس أرجوك يا عزيزى .

وأخذ رجل البريد يمسح ركبتيه بيديه لفترة ثم قال :

– لم أفكر فى الغضب مطلقا ، انى أفهم جيدا أن المرض صعب ، لقد اقلقتنا جدا حالتك بالأمس ، وتحدثنا أنا والدكتور عنك طويلا ، لماذا يا عزيزى لا تريد أن نهتم بمرضك بالجدية اللازمة ؟ هل من الممكن اهمال مثل هذا المرض ؟

وخفض ميخائيل أفريانتش صوته وأضاف :

– اعذرنى على صراحتى كصديق : انك تعيش فى ظروف غير مناسبة ، شقة ضيقة ، قذارة ، لا يهتم بخدمتك أحد ، لا تملك ثمن علاجك ... يا صديقى العزيز ، انا نتوسل اليك أنا والدكتور من كل قلبينا أن تسمع



لنصيحتنا وتدخل المستشفى فستجد فيها الغذاء الصحي  
والعناية والعلاج ، صحيح أن يفجيني فيودرتش جلف ،  
الا أنه - فيما بيننا - طبيب جيد من الممكن الاعتماد عليه ،  
لقد وعدني بأنه سيهتم بك •

فتأثر أندريه يفيمتش تأثرا بالغيا من الاهتمام  
الصادق ومن الدموع التي طفرت من عيني رجل البريد ،  
فقال بصوت منخفض واضعا يده على صدره :

- لا تصدق ! لا تصدقهم ! ان هذا خداع ! ان مرضى  
الوحيد هو أنى خلال عشرين عاما لم أجد فى كل المدينة  
الا انسانا ذكيا واحدا ولكنه مجنون ، ليس عندى أى مرض  
ولكنى ببساطة وقعت داخل دائرة سحرية مغلقة لا يوجد  
منها مخرج • ولكن لا فرق عندى فأنا مستعد لكل شىء •

- أدخل المستشفى يا عزيزى •

- لا فرق عندى ، اننى على استعداد أن أدخل جهنم  
ذاتها •

- أعطنى كلمة يا عزيزى انك ستطيع يفجيني  
فيودرتش فى كل شىء •

- فليكن ، أعذك • ولكنى أكرر لقد وقعت فى دائرة  
سحرية مغلقة • والآن كل شىء حتى العطف والاهتمام  
المخلص من جانب اصدقائى يؤدى الى نتيجة واحدة •  
يؤدى الى هلاكى • اننى أهلك وعندى الشجاعة الكافية  
لأدرك ذلك •

– ستشفى يا عزيزى •

فقال اندريه يفيمتش بضيق :

– لا داعى لهذا القول ، قلما يوجد الانسان الذى لا يشعر فى آخر حياته بما أشعر به أنا الآن ، واذا ما قاء لك احد ان كليتيك مثلا مريضتان أو أن قلبك متضخم او اذا قال الناس عنك انك مجنون أو مجرم ، وبكلمة واحدة اذا بدأ الناس فى الاهتمام بأمرك فجأة ، فيجب عليك أن تعلم انك وقعت فى دائرة سحرية مغلقة لن تخرج منها 'بدا وكلما حاولت تحرير نفسك كلما ضللت أكثر • لذا يجب ان تستسلم لأنه لا توجد اى قوة تستطيع تحريرك ، هكذا أرى •

وكان الجمهور قد تجمع أمام شباك رجل البريد فنهض اندريه يفيمتش ليودع صاحبه حتى لا يعطله عن العمل • وأخذ ميخائيل افريانتش وعدا آخر من صديقه ثم ودعه الى الباب الخارجى •

وفى نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف الى أندريه يفيمتش ، وكان مرتديا معطفه القصير وحذاءه ذا الكعب العالى ، وقال له كما لو ان شيئا لم يحدث البتة :

– لقد اتيت لك يا زميلى لموضوع متعلق بالعمل • أنا أدعوك لتأتى معى لنشكل « كونسلتو » طبيا للكشف على أحد المرضى •

فظن أندريه يفيمتش أن خوبوتوف يريد أن يرفقه  
عنه بالتنزه أو أنه يعطيه فرصة للتكسب فارتدى أندريه  
يفيمتش ملابسـه وخرج مع خوبوتوف ، وسر من أن  
خوبوتوف يمنحه الفرصة لمحو غلطة الأمس وللتصالح فشكر  
له أندريه يفيمتش كل هذا فى نفسه، ولم يذكر خوبوتوف  
شيئا عما وقع بالأمس ، وكان من الصعب توقع هذه الرقة  
من انسان غير مهذب مثل خوبوتوف .

وسأله أندريه يفيمتش :

– أين مريضك هذا ؟!

– عندى فى المستشفى ، لقد كنت أود ان اريه لك  
من مدة ... حالة نادرة .

ودخلا فناء المستشفى ثم سارا بجوار المبنى الرئيسى  
متجهين الى مبنى عنبر المجانين ولما دخلاه نهض نيكيتا  
كعادته .

وبعد أن دخلا العنبر قال خوبوتوف خافضا صوته  
قليلا :

– لقد حدث لاحدهم هنا مضاعفات فى الرئة .  
انتظرنى قليلا ، سأحضر سماعتى .

وخرج .

كان الوقت مساء ، وكان ايفان ديمترتش راقدا على سريره مخبئا وجهه فى الوسادة ، وكان المشلول جالسا بلا حراك يبكى فى هدوء متلمظا بشفتيه ، أما الفلاح السمين ومصنف البريد السابق فكانا نائمين • كان الهدوء يسود العنبر •

جلس أندريه يفيمتش على سرير ايفان ديمترتش منتظرا ، ومرت نصف ساعة ، وبدلا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكا بصرة بها معطف وملابس داخلية وقال بصوت خفيض :

— تفضلوا سيادتكم بتغيير الملابس ، ها هو سريرك •  
وأشار الى سرير لم يكن هنا من قبل ، وأضاف :  
— لا تحزن ، قريبا ستشفى باذن الله •

فهم أندريه يفيمتش كل شئ ، ونهض صامتا ليجلس على السرير الذى أشار اليه نيكيتا ، ولما رأى أن نيكيتا ينتظر تعرى من ملابسه كلها واحمر خجلا ، ثم ارتدى ملابس المستشفى ، وكانت السراويل قصيرة جدا ، ورائحة السمك المملح تفوح من المعطف •

وردد نيكيتا :  
— ستشفى باذن الله •

تم أخذ الملابس وخرج مغلقا الباب خلفه .

وفكر أندريه يفيمتش وهو يللم المعطف بخجل ويشعر أنه فى ردائه الجديد أشبه بالسجين « كل شىء سواء . . كل شىء سواء . . لا فرق بين الحلة وبين البزة العسكرية وبين هذا المعطف . . ولكن الساعة ! والمذكرة الموجودة فى الجيب الجانبى ؟ والسجائر ؟ الى أين حمل نيكيثا الملابس ؟ يبدو أننى لن أرتدى مرة أخرى بنطلونا أو صديريا أو حذاء ، الى الممات » ان ذلك لغريب وغير مفهوم للوهلة الأولى . وحتى هذه اللحظة كان أندريه يفيمتش لا يزال مؤمنا بأنه لا فرق بين منزل بيلوفا وبين العنبر رقم ٦ ، وأن كل شىء على وجه الأرض ترهات وأشياء مصيرها الزوال ، ولكن كانت يدها ترتجف وأقدامه تبرد وسيطر عليه شعور ثقيل اذ قريبا سينهض ايفان ديمترتش وسيراه فى المعطف ، فنهض وتمشى فى الغرفة قليلا ثم جلس ، وظل جالسا حوالى ساعة فأصابه الملل . أمن المعقول ان يستطيع المرء الحياة هنا لمدة يوم وأسبوع وسنوات مثل هؤلاء الناس ؟ حسنا ، لقد جلس ثم تمشى ثم جلس ثانية ، ومن الممكن أن يذهب لينظر من النافذة ثم يتمشى من ركن لآخر ، ثم ماذا ؟ أيجلس المرء طول الوقت كالمشدوه ويفكر ؟ لا ، هذا مستحيل .

ورقد أندريه يفيمتش ولكنه نهض فى الحال ومسح العرق البارد من فوق جبينه بكم المعطف فشعر برائحة

السمك المملح تنبعث من كل وجهه ، فبدأ فى السير ثانية،  
ورفع كفيه الى أعلى وقال متعجبا :

– هناك سوء فهم . . لا بد من ايضاح الأمر فهناك  
سوء فهم . . .

وهنا استيقظ ايفان ديمترتش وجلس واضعا يديه  
تحت ذقنه وبصق ، ثم نظر بتكاسل الى الطبيب ويبدو انه  
لأول وهلة لم يفهم ما يحدث حوله ، ولكن سريعا ما أصبح  
وجهه قاسيا هازئا وقال مغمضا احدى عينيه وبصوت  
مبحوح من اثر النوم :

– أها ، لقد جاءوا بك انت ايضا يا عزيزى ! انى  
لمسرور . لقد كنت تمتص دم الناس والآن سيمتص دمك .  
رائع !

فأخافت تلك الكلمات اندريه يفيمتش وقال :

– لقد وقع سوء فهم .

ورفع كتفيه وكرر .

– هناك سوء فهم .

وبصق ايفان ديمترتش ورقد ثم قال بضيق :

– يا لها من حياة ملعونة ! واكثر ما يحزن اننا لن  
نكافأ على تحمل كل هذه الآلام ولن تنتهى حياتنا نهاية  
سعيدة كما يحدث عادة فى الاوبرا بل ستنتهى بالموت .

وسياتون لحمل جثثنا من الايدى والارجل • ويلقون بنا  
فى بدروم المستشفى • اوف ! ولكن حسنا • • • ستكون  
حياتنا فى العالم الآخر عيدا • • • وسأحضر من العالم  
الآخر كشبح لأخيف أولئك الانذال • سأجعلهم يجنون •  
وعندما عاد موسيكا ورأى الطبيب مد له يده قائلا:  
- اعطنى كوبىكا !

## - ١٨ -

توجه أندريه يفيمتش الى النافذة وكان الظلام قد  
خيم ، ورأى فى الأفق عن ناحية اليمين القمر قد سطع  
باردا أحمر اللون ، وغير بعيد على بعد حوالى مائة ذراع  
- لا أكثر - من سور المستشفى يقع مبنى أبيض مرتفع  
ذو جدران حجرية ، ذلك هو السجن •

وفكر أندريه يفيمتش « هذا هو الواقع » فداخله  
الرعب •

وبدا له كل شيء مخيفا - القمر ، السجن ، المسامير  
على السور ووهج النيران وأحس بأنفس خلف  
ظهره وعندما استدار وجد رجلا تلمع على صدره  
نجوم وأوسمة يبتسم ، ويغمز له بعينه ، فبدا له ذلك  
أيضا مخيفا •

وحاول أندريه يفيمتش أن يقنع نفسه أنه لا يوجد شيء غريب في القمر أو في مبنى السجن ، وإن الناس الأصحاء أيضا يضعون على صدورهم الأوسمة ، وأنه بمرور الوقت سيبتلعن كل شيء وسيتحول الى تراب ، ولكن فجأة أحس بيأس هائل فأمسك بقضبان النافذة بكلتا يديه وصار يهزها بعنف ولكن القضبان القوية لم تتحرك من مكانها .

وحتى يتغلب على احساسه بالخوف توجه الى سرير ايفان ديمترتش وجلس عليه وقال وكل جسده يرتجف :  
— لقد انهرت معنويا يا عزيزي ، انهرت تماما .  
ومسح العرق من على جبينه ، فأجاب ايفان ديمترتش هازئا :

— فلتتفلسف .

— يا الهى يا الهى . . . أجل ، أجل . . . لقد تفضلت مرة وذكرت أنه لا توجد في روسيا فلسفة ، ولكن الجميع يتفلسفون حتى البسطاء .

وأضاف بلهجة من يريد أن يبكى ويجعل الآخرين يشعرون نحوه بالعطف :

— ولكن فلسفة البسطاء لا تؤذى أحدا . لم ياعزيزي



تضحك بتشفي ؟ وكيف لا يتفلسف البسطاء اذا كانوا  
غير راضين عن وضعهم ؟ ان الانسان الذكى ، المثقف ،  
الأبى ، المحب للحرية ، المخلوق على صورة الآلهة يجد  
نفسه مضطرا للعمل فى مستشفى مدينة صغيرة غبية ،  
ولا يرى فى حياته سوى كاسات الهواء واللزقات  
والأربطة . يا له من خداع وضيق أفق ووضاعة !  
يا الهى !

- انك تثرثر بترهات . اذا كنت متقرزا من التطبيب  
فلماذا لم تصبح وزيرا ؟

- لا مخرج ، لا مخرج . اننا ضعفاء يا صديقى ،  
لقد كنت هادىء النفس سليم التفكير طالما لم تمسنى  
الحياة القاسية ، فما ان مستنى حتى انهارت روحى  
المعنوية . . . يا للتهلل . . . اننا لضعفاء متلهلون . .  
وأنت أيضا كذلك يا عزيزى . انك ذكى ، كريم الخلق ،  
بل لقد رضعت نبل الأخلاق مع لبن الأم ولكن ما ان طرقت  
أبواب الحياة حتى تعبت ومرضت . . . ضعفاء نحن !

ولقد شعر أندريه يفيتمتش مع هبوط المساء باحساس  
لزوج غير مفهوم ، بخلاف الحزن والخوف ، وأخيرا أدرك أنه  
بحاجة الى البيرة والدخان فقال :

- سأخرج من هنا يا عزيزى ، سأطلب منهم احضار  
مصباح . . . اننى لا أستطيع هكذا . . . لن أتحمل . . .

وتوجه أندريه يفيمتش الى باب العنبر وفتحه ، ولكن  
نيكيتا نهض سريعا وسد الطريق قائلا :

— الى أين ؟ ممنوع ، ممنوع ! حان وقت النوم !

فقال أندريه يفيمتش بسرعة :

— ولكنى سأخرج لفترة وجيزة ، سأترى قليلا فى  
الفناء !

— ممنوع ، ممنوع ! الأوامر لا تسمح بذلك . انك  
يا سيدى تعلم بنفسك .

وقفل نيكيتا الباب بقوة وسنده بظهره ، فتساءل  
أندريه يفيمتش متعجبا :

— ولكن ماذا سيحدث اذا خرجت من هنا ؟ أنا  
لا أفهم ! نيكيتا ، انى محتاج للخروج !

وأضاف بنبرات متقطعة :

— انى فى أمس الحاجة !

فقال نيكيتا ناصحا :

— لا داعى للفوضى ! هذا غير حسن !

فصرخ ايفان ديمترتش فجأة :

— يا للشيطان !

ونفض مسرعا وأضاف :

— أى حق يخول له منعنا من الخروج ؟ كيف يجرءون  
على سجننا هنا ؟ ان القانون — على ما أظن — ينص صراحة  
انه لا يمكن مصادرة الحريات دون محاكمة ! ان هذا لقهر  
واغتصاب ! انها لفوضى !

فقال اندريه يفيمتش متشجعا بصراخ ايفان  
ديمترتش :

— طبعاً فوضى ! اننى محتاج للخروج فيجب أن  
أخرج • انه لا يملك الحق فى منعى • افتح نقول لك !

فصرخ ايفان ديمترتش مرتجفا :

— افتح ! انى أطالب بذلك !

وقال نيكييتا من وراء الباب :

— فلتتكلم كما يحلو لك ! قل ، قل !

فقال أندريه يفيمتش :

— على أقل تقدير اذهب واستدع يفجينى فيودرتش!  
قل له انى أرجوه أن يأتى ••• لدقيقة واحدة •

— سيجضر بنفسه غدا •

فقال ايفان ديمترتش :

- لن يخرجونا من هنا أبدا ! سنتعفن هنا يا الهى !  
هل فعلا لاتوجد جهنم وسيفلت هؤلاء الأندال من العقاب ؟  
أين اذن العدالة ؟

وصرخ بصوت متحشرج :

- افتح يا نذل ، انى أختنق !

وارتمى على الباب صارخا :

- سأحطم رأسى ! يا قتلة !

ففتح نيكيتا الباب بسرعة ودفع أندريه يفيمتش  
بقسوة فى ظهره بكلتا يديه وركبته ، ثم ضربه بقبضة  
يده وبكل قوته على وجهه ، فشعر أندريه يفيمتش بموجة  
مالحة هائلة غطته الى قمة رأسه وقذفت به الى السرير ،  
وفعلا أحس بطعم مالح فى فمه ، لابد أن الدم ينزف من  
أسنانه ، وجدف بيديه كما لو كان يسبح وأمسك بأحد  
الأسرة ، وشعر بضربتين قويتين أخريين .

وصرخ ايفان ديمترتش ، لا بد أنه يضرب هو الآخر .

ساد الهدوء . وكان ضوء القمر ينساب خلال قضبان  
النفاذة مكونا على الارضية ظلا يشبه الشبكة . ورقد  
أندريه يفيمتش على السرير حابسا أنفاسه ينتظر برعب  
ضربات أخرى ، وأحس كما لو أن أحدا وضع فى جوفه  
منجلا حادا ثم قلبه عدة مرات فى صدره وأحشائه ، فعض

الوسادة من الألم الحاد ، وفجأة وبين الفوضى اللانهائية  
فى رأسه ظهرت فكرة فظيعة غير محتملة : انه كان على  
هؤلاء الناس هنا فى العنبر - هؤلاء الناس الاشبه بالخيالات  
السوداء فى ضوء القمر الشاحب - أن يقاسوا لمدة سنين  
ليالى كثيرة مثل هذه الليلة . كيف كان ذلك يحدث لمدة  
عشرين سنة وأكثر وهو لا يشعر أو لا يريد أن يشعر ؟  
انه لم يعرف الألم بل لم يكن عنده أى فكرة عن الألم ،  
اذن فهو غير مذنب . ولكن ضميره كان قلقا ، وفظا مثل  
ضمير نيكيتا ، فتملكته الرجفة من قمة رأسه الى اخص  
قدميه ، فنهض مسرعا وأراد أن يصرخ بكل قوته ثم يجرى  
ليقتل نيكيتا وخوبوتوف وكبير المرضى وأمين المخزن ثم  
يقتل نفسه ، ولكن لم يخرج من حلقه أى صوت ولم تطعه  
قدماه وأحس بالاختناق فمزق المعطف والقميص من على  
صدره وارتمى على السرير مغميا عليه .

## - ١٩ -

وفى صباح اليوم التالى كانت رأسه تؤلمه ، ويسمع  
صفيرا فى أذنيه ويشعر بكل جسده محطما ، ولم يخجل  
من ضعفه بالأمس ، لقد كان بالامس جبانا خائفا حتى من  
ضوء القمر بل لقد ذكر بصراحة وصدق بعض الافكار  
والاحساسات التى لم يكن يظن أنها موجودة أصلا فى

رأسه ، مثل فكره أن البسطاء يتفلسفون لانهم غير راضين .  
ولكن الآن كل شيء سواء بالنسبة له ، ولم يكن يأكل أو  
يشرب ، بل رقد ساكنا صامتا . وعندما كان يوجه اليه  
أحد سؤالا كان يفكر « كل شيء سواء ، لن أجاب ...  
بالنسبة لي كل شيء سواء » .

وبعد الغداء حضر ميخائيل أفريانتش وأحضر معه  
ربع رطل شاي ورطل حلوى ، كما حضرت داريوشكا  
ووقفت لمدة ساعة بجوار سريريه وعلى وجهها يرتسم تعبير  
حزن غبي ، ثم زاره خوبوتوف وأحضر له زجاجة بروميد  
الصوديوم وأمر نيكيتا أن يدخن العنبر بأى شيء محترق  
ليطرد منه الروائح .

وقبيل المساء مات أندريه يفيمتش اثر انفجار شرايين  
المنح . شعر أولا برعشة هائلة وغثيان ، ثم أحس كما لو  
أن شيئا مقززا بدأ يملأ جسده حتى لقد دخل الى أصابعه  
ثم صعد من معدته الى رأسه وغطى عينيه وأذنيه ، ثم رأى  
أمام عينيه شيئا أخضر اللون . وأدرك أندريه يفيمتش أن  
نهايته قد حانت ، وتذكر أن ايفان ديمترتش وميخائيل  
أفريانتش وملايين آخرين من البشر يؤمنون بالابدية والحياة  
الآخري . أتكون هناك حياة أخرى ؟ ولكنه لم يشعر بأى  
رغبة فى الحياة الابدية ولم يفكر فيها الا للحظة خاطفة .  
ها هو قطيع من الغزلان ذات الجمال الأخاذ تلك الغزلان  
التي قرأ عنها بالامس فى منزله . وها هى امرأة تمد

يدها بخطاب مسجل . . وها هو ميخائيل افريانتش قد  
قال شيئا . ثم اختفى كل شيء . وسكن أندريه يفيمتش  
الى الابد .

وجاء عمال المستشفى وحملوه من يديه وقدميه  
وحملوه الى ، وقضى الجثمان الليلة على المنضدة بأعين  
مفتوحة تحت ضوء القمر . وفي الصباح حضر كبير  
الممرضين حيث قرأ صلاة أوشية الموتى ثم أقفل عينى  
رئيسه السابق .

ودفن أندريه يفيمتش فى اليوم التالى . ولم يحضر  
الجنائزة سوى ميخائيل افريانتش وداريوشكا .

« تمت »

# دار الكتاب العربي للطباعة والنشر

قدمت لك خلال الأيام الماضية

ساعات بلا عقارب

تأليف : أنيس نصير

البلد

تأليف : عباس أحمد

سيرة لبنان

تأليف : عزام الربيع جفني

شرح في هذا الحرف

تأليف : محمد صديق

لم نمت بعد

تأليف : أكرم شريم



# وقدح لك قريباً

مربية بلا قلب

شعر : أحمد عبدالمطعم صبازي

الحان مصرية

شعر : صالح مهدي

نأي وشموع

شعر : محسن الخطاط

الناس التي تحت

تأليف : نعمان عاشور

وبعدنا الطرفان

تأليف : سليمان فياض

# فى العدد القادم

## الحسناء والعبيط

قصة تدور أحداثها فى منتصف القرن الماضى ..

قصة تروى لنا كيف يمكن لشاب أن يتمسك بمبادئه وأخلاقياته ، مخترقا سدود العبت واللامبالاة والغرور التى تحتجز أمثاله من الشباب .

قصة تحكى الصراع بين المثل العليا واللا أخلاقيات .  
من سينتصر فى النهاية ، الشاب «العبيط» الجاد أم الشباب المدله العابت ؟

هذا ما تجيبنا عليه رواية

**الحسناء والعبيط**

**تأليف**

**أ . بيسيمسكى**

**ترجمة**

**حسين القبانى**

**ملتمزم التوزيع**  
**في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم.**  
**الشركة القومية للتوزيع**

**مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة**

١ - فرع شريف	٣٦ شارع شريف	المنشون ١٠٠١٢ القاهرة
٢ - فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ - فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٢٦٣٨٣ القاهرة
٤ - فرع البهبان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ - فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٢٢ القاهرة
٦ - فرع عديين	١٤ شارع الجمهورية	٩١١٢٢٣ القاهرة
٧ - فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ - فرع العيزة	١ ميدان العيزة	٩٩٩٣١٤ القاهرة
٩ - فرع أسوان	أسوان السباحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ - فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الاسكندرية
١١ - فرع طنطا	ميدان الصناعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ - فرع المنصورة	ميدان النخطة	المنصورة
١٣ - فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

**مراكز وكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة**

١ - مركز توحيد الجزائر	شارع سن ميمدى العربي رقم ١١ سكر	الجزائر
٢ - مركز توحيد لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ - مركز توحيد العراق	ميدان الحرور	بغداد
٤ - حد أرض الكفاي	شارع ٢٩ أيار - دمشق	سوريا
٥ - الشركة العربية للتوزيع	ص. ب. رقم ١٢١٨ بيروت	لبنان
٦ - قاسم الزيت	مكتبه الشقي - حداد	العراق
٧ - رحا العيسى	وكالة التوزيع - صان	الأردن
٨ - حد الزين العيسى	شارع للورج ص. ب. ١٥٧١	الكويت
٩ - وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ - مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص - ليبيا	بنغازي
١١ - محمد بشير العراقي	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ - الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ - وكالة الأهرام	شارع الرشيد	مصر
١٤ - الشركة الوطنية	الشاحنة - الخليج العربي	البحرين
١٥ - مكتب الدعوة	ص. ب. ٢٢ و ٦١	الدوحة
١٦ - حد الله حسين الرضاوي	المكتبة الأهلية ص. ب. ٢٦١	دمشق
١٧ - المكتبة الحديثة	ص. ب. ٢٧	سقط
١٨ - أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص. ب. ٢٥	الكلاب
١٩ - مكتبة دار الفكر	شارع عبد الحسي ميدان المنصورة	حماة
٢٠ - علي أبو هيب شمر	ص. ب. ٨٢	المنصورة
٢١ - حد الله قاسم الحراري	ص. ب. ١٧١٤	ادس ١١١
٢٢ - مكتب ستر	ص. ب. ٩٣١	مقدش
٢٣ - حد الله ماهر محمد	ص. ب. ٨٢٥	دسنا
٢٤ - مكتب توحيد المصنوعات العربية	لحم	لندن
٢٥ - المكتبة التجارية الشرقية	٤٠ ش كدهار ص. ب. ٢٠٠٥	سماطريه
٢٦ - مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ - مكتبة النصر		براقى ميدان
٢٨ - زكي جرجس مطبوعى	ص. ب. رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ - إبراهيم عبد القويوم	مكتب القويوم ص. ب. ١٨٠	بور سودان
٣٠ - موسى الله محمود دويوه	مكتبة دويوه ص. ب. ٢٤	طبره
٣١ - عيسى حد الله	المكتبة الوطنية ص. ب. ٢٤٥	باقى ميدان
٣٢ - مصطفى صالح	ص. ب. ١٤	كوسنى

**أسعار البيع للجمهور في الدول العربية**

سوريا ٥٠ قرش - سوريا ٥٠ ليرة - لبنان ٥٠ قرش - لبنان ٥٠ ليرة - الأردن ٥٠ فلس - العراق ٥٠ فلس - الكويت ٧٠ فلس - السودان ٥٠ مليم - ليبيا ٥٠ مليم - قطر ٧٥ درهم - البحرين ٧٥ فلس - عمان ١٠٠ سنت - اليمن ٥٠ سنت - اسرة ٥٠ سنت - الجزائر ٨٠ مليم

دارالكاتب العربي

تواصل إصدارها للأعمال الكاملة  
فتقدم

الجزء الرابع من أعمال الفنان العملاق  
دوستويشكي

مذلولون مرهانون

ترجمة : د. سامي الدروني

يطلب من مكتبات القومية للتوزيع

طبع الغلاف بدار الكاتب العربي للطباعة والنشر - بالظاء